M O H A M M E D   A L - T U R A I K I

سيرة و مسيرة

AUTOBIOGRAPHY

سُتُونَ عَاماً بينَ المتُعَبين

رحلتي من الألم إلى علاج آلام الآخرين

محمد الطريقي

سُتُونَ عَامًا بينَ المُتُعَبِين

رحلتي من الألم إلى علاج آلام الآخرين

ستون عاماً بين المتعبين/سيرة ومسيرة
عدد خاص رقم (٢٦٣) من مجلة العَالم لشهر فبراير ٢٠٢١م
رئيس التحرير: **محمد الطريقي**
مستشار التحرير وصناعة المحتوى: **أسامة الزيني**

مؤسسة العَالم للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: شارع المهلب بن أبي صفرة - حي الربوة
ص.ب: ٩١٤٠٩ الرياض: ١١٦٣٣
جوال: ٥٤٢٣١٩٦٨٠ ٩٦٦+ - المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني:
www.alaalem-media.com

بريد إلكتروني:
ce@alaalem.org - malturaiki@profalturaiki.com
malturaiki@yahoo.com - dr.alturaiki@hotmail.com

التصميم والإشراف الفني:
شمس الدين عبدالله إبراهيم
صورة الغلاف: علي السيلاوي

ⓒ جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

© All rights reserved, No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writting of the publisher.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - المملكة العربية السعودية
الرقم الدولي المعياري: ٦٥٤٥ - ١٣١٩ - رقم الايداع: ٠١٥٧ / ١٨

سيرة و مسيرة
AUTOBIOGRAPHY

سُتُونَ عَامًا بين المتُعَبين

رحلتي من الألم إلى علاج آلام الآخرين

أ. د. محمد بن حمود الطريقي

كلمة عرفـان لا بد منـها

جزيل الشكر، وخالص العرفان..
لكل من سعادة الدكتور محمد سمير طليمات، وسعادة الدكتور عبدالله صالح عزيز، وسعادة البروفيسور (المشارك) إسراء محمد الطريقي، وسعادة الدكتورة مينة ابيه القالي، وسعادة الدكتورة (طبيبة) مزنة محمد الطريقي...
لما خصوني به من وقتهم لمراجعة هذا الكتاب، وإبداء آرائهم القيمة فيه.. إليهم جميعاً أبعث بطاقة محبة أعترف بأنني لا أستطيع تسطير فحواها..

محمد الطريقي

الإهـــداء

إلى روح والدي «الرويبخ» يرحمه الله..
الذي إذا نويت فعل خير تذكرته فدفعني إليه..
والذي إذا ذكر في المجالس وددت لو أسعفني العمر والإنجاز فيذكرني الناس كما يذكر..
إلى روحك يا والدي أهدى هذه الأعوام الستين من حياتي بين المتعبين..
الأعوام التي تذكرني بك، كلما تأملتها وجدتها نسخة أخرى من سيرتك.

ابنك محمد

ستون عامـاً قد مضـت
والعمـرِ يمضـي مسرعـا
أجـري وأسعــى دائمـاً
والله يجــزي من سعــى
ذكرى أبي في خاطري
و«الصـاج» خيـرٌ مرجعـا

إهداء الشاعر الدكتور..
مـحـمـد سميــر طليمـات

الفهرس

الإهداء ٥
رحلة ٩
في الطريق إلى عظام أبي ١٥
عتق «المؤخرات» ٣٥
أطول رحلة علاجية في العالم ٥٣
عقال أبي ٧٥
المعوِّقون ٩٧
«صاج» النجاة ١١٧
طلاق بائن ١٣١
كعكة الضوء ١٣٥
الحساب الفارغ ١٣٩
منجزات لا تموت، ولا تغلق أبوابها ١٤١
حملة الأمير سلطان ١٤٤
إصدارات «العَالم» ١٤٨
الحجر والماء ١٥٠
تكريم الذات ١٥١
إرث العلم ١٥٣
معالم في الذاكرة ١٥٥
عـزاء ١٦١

رحلـــة

رحلـــة

إذا كانت الحياة في جوهرها تلكم الأيام التي نقطعها سيرًا في دروب الأرض، فقيمة حياة كل منا تقاس بعدد الآثار التي تركها في كل درب مرّ فيه، وفي الرسالة التي تركها لمن يأتون من بعده، سواء في هذه الدرب، أو في غيرها من دروب العالم. قل لي ماذا تركت، أقل لك كم قيمتك في ميزان الإنسانية.

خرجت بمغانم ليست بالقليلة من رحلة حياة طويلة لم تعرف هدنة، ولم أتوقف عن الركض في مضاميرها منذ طفولتي، لكنني كنت دائمًا أجد السعادة في ما قدمت، لا في ما غنمت. علمني هذا أن العطاء أكبر مغنم يمكن أن يغنمه

الإنسان، وأبقى مغنم للإنسان؛ فلا أحد يمكنه أن يسلبك ما أعطيته، هذا فوق أنه يُسَطَّرُ باسمك في ذاكرة الإنسانية، وذاكرة الإنسانية لا تطولها الأيادي السوداء التي تجردنا من أشيائنا، لذا فالأبقى للإنسان ما أعطاه لا ما أخذه.

لا أنكر أنني تألمت كثيرًا على أشياء فاتتني، وأسفت لمظالم نالتني، لكنني حين تفكرت في رحلتي، رأيت عجبًا؛ ففي وقت كان كل همي فيه مَدّ يد العون للآخرين، كان كل همّ بعضهم مد أيديهم بالأذى لما وفقني الله في تحقيقه، فحمدت الله سبحانه وتعالى أن هداني إلى العطاء، وسلمني من أن أكون من الساعين في الضرر والإيذاء، وامتلأت رضا حين تفكرت مجددًا، فوجدت أنه لم يضرني أحد إلا بشيء قد كتبه الله علي، فهدأت واستراح قلبي.. أدركت أننا جميعًا كنا في اختبار كبير، وأنني، بإذن الله، كنت من الناجحين، فالحمد لله رب العالمين.

يخطئ الإنسان كثيرًا حين ينظر، فقط، إلى ظاهر الأمور، حين يحكم على الأشياء من الوهلة الأولى، من دون أن يرى وجه العظة والعبرة فيها، ويقرأ الرسالة الإلهية في كل اختبار يتعرض له، وفي كل محنة يمتحن بها، فاختبارات الإنسان في هذه الحياة لا تتوقف، فما إن يجيب عن سؤال، حتى يوضع أمام سؤال جديد، وليست جميع الأسئلة واضحة كما قد يتبادر لأحدنا، فبعض الأسئلة يُشكِلُ علينا،

بل يخوننا، فنسرع بالإجابات الخاطئة، لكننا حين يمر علينا الزمن، وتنضجنا التجربة، نرى ما لم يكن بالإمكان أن نراه بعين الغضب آنذاك، ولقد رأيت اليوم كثيرًا مما ظننته يومًا أذى لحق بي، لكنه لم يخل من رحمة وخير طوي عليها هذا الأذى، فلله الحمد في كل حال.

وأستطيع القول مطمئنًا، بعد رحلة من الركض في مضامير الحياة امتدت لأكثر من نصف قرن، بدأتْ مبكرًا جدًا، منذ كنت طفلاً في الصفوف الابتدائية، إنه ليس على الإنسان أن ينشغل في الأساس بالحكم على ما يناله في الحياة، شرًا كان أم خيرًا، فقط على الإنسان أن يعمل ويعمل ويعمل، ويعطي ويعطي ويعطي، ثم يثق بربه تمامًا، فلن ينال منه حاسد أو حاقد، لأن الله سيدبّر له أمره، وسيخرجه من جوف المهالك، وسيرضيه في الأخير، ويصلح له أمره، حين يجلس في نهاية الرحلة، ويضع بين يديه ما قدم في هذه الحياة، وما أضاف إليها. هنا، أيضًا، سيدرك أنه أخطأ كثيرًا حين تألم بشدة لما ناله من إيذاء وظلم، وحين شغلته المظالم التي تعرض لها عن مكتسبات الحياة التي وفقه الله إلى تحقيقها. هنا تبرز ثقافة العزاء، أن ينظر المرء إلى ما بين يديه، فيتعزى به في ما فقد، فقط حين فعلت هذا، بدأت أشعر بالسلام النفسي كثيرًا وأتصالح مع ابتلاءات الحياة.

ولعل أقرب السبل إلى السلام النفسي، تأمل سير الراحلين، ففي حين ذهب بعضهم وبقيت آثاره، وسيرته، نورًا للسالكين، اختفى آخرون من المشهد تمامًا، كأنهم لم يأتوا إلى هذه الدنيا، بل ربما لا يذكرون إلا بالسوء، فأي قيمة لمغانم الحياة إذا كان هذا هو المآل؟ وما قيمة أي انتصارات نحققها على حساب آدميتنا وإنسانيتنا؟ وأي خسائر يخشاها الإنسان، في اختبار كبير، يزداد ثقل كفته فيه، ليس بما يغنمه، بل بما يعطيه.

في الطريق . . إلى عظـــام أبـــي

في الطريق .. إلى عظـــام أبـــي

الرابعة عصرًا، موعد رحلتي الأسبوعية مساء كل خميس إلى الزلفي، تلك البقعة الخضراء المتحصنة بين صحراء النفود وجبال طويق، كأنها سر قديم من أسرار صحراء نجد، أو ملاذ كان العابرون قديمًا يأوون إليه؛ طلبًا لمائها الزلال، وتمور نخيلها، خلاصهم حين تشتد بهم وطأة الشمس والجوع في طريق رحلتهم إلى مكة والمدينة أو عودتهم منهما. الزلفي، أرضي الأم التي وُلِدَت على حواف الحياة بين حدود ممالك؛ كندة، والمناذرة، والغساسنة، واختارتها الجغرافيا والتاريخ معًا، لتكون حلقة وصل بين مملكة هجر، ومملكة العماليق في تيماء، ويثرب، ومكة، والحجر، ومعين.

الزلفي، منهل العرب القديم منذ جاهليتهم، ثم بعد إسلامهم، وحتى اليوم، فلم تنقطع عن هذه البلاد مياه الزلفي، ذلكم المورد القديم الذي اشتهر بعذوبة مائه وأهله، وكرمهم الذي شهد به أضيافها على مدار تاريخ العرب الذي تعد الزلفي إحدى وجهاته الغناء حين تُذكر مفاتن اليمامة، وإحدى وجهاتها المشتعلة الشعواء، حين تذكر فتنها وأيامها التي اشتدت فيها وطأة بعضهم على بعض؛ ربما لهذا أجد داخلي هذا المزيج من العذوبة التي تجري في دمائي جريان الماء الزلال في شعاب الزلفي وآبارها، والشدة التي ألهمتني إياها إطلالة جبال طويق المهيبة، مزيج من جمال مشهد رمال النفود، وإحكامها على قدميك فلا تفلتك إن أنت لم تخض فيها برفق وحذر. أيضًا ربما لهذا أجد داخلي هذا الانزياح الجارف نحو الآخر، نحو مد جسور العلاقة معه، نحو احتوائه، وإطفاء أي شرارة نزاع محتملة بيني وبينه أو بينه وبين الآخرين، فأنا ابن أرض كان قدرها منذ فجر التاريخ أن تكون نقطة جوار حذرة بين الأضداد، وحدود جوار مشحون بالترقب بين أقوى ممالك العرب قديمًا، لكنني لست نسيج وحدي في هذا، فلطالما راقبت أبي يفعل هذا، يجمع بين شمال الزلفي (البلاد) وجنوبها (العقدة) الضدين التاريخيين آنذاك، قبل أن يقرر إنشاء أول شركة كهرباء في الزلفي،

والثالثة في المملكة بعد الرياض وجدة، على فضاء أرض طلب تخصيصها من الدولة وجاءته الموافقة على الفور؛ لتصبح الزلفي ثالث بقعة تنار بالكهرباء، ولتصبح شركة الكهرباء أول بقعة يقصدها الضدان؛ شمال الزلفي وجنوبها معًا؛ ليتقدموا بطلبات توصيل الكهرباء إلى منازلهم، وغيرها من المعاملات، مع الكيان الوليد الذي أنار حياتهم في حدث كان الأقوى والأكثر تفردًا، وأنار قلوبهم أيضًا، فمع الوقت اعتاد أهل الشمال والجنوب أن تتقاطع طرقهم، وتتوحد وجهاتهم، ومع مرور الأعوام، أصبح خلاف الأمس جزءًا من الماضي، نسوه، تمامًا كما أصبح الرويبخ (كُنية والدي من والده) جزءًا من الماضي، فقط أولو الوفاء يذكرون له أنه صانع النور الذي أضاء حياتهم، ومنح أرضهم أسبقية تاريخية حضارية دفع كثيرًا في سبيل تحقيقها، ولم يجن سوى القليل، بعدما أممت شركة الكهرباء التي أنفق فيها ماَ ركض في جمعه من المال على مدار عمر أمضاه بين عواصم المملكة والعالم في إدارة تجارته الواسعة، ثم لم يجن في الأخير سوى حوالي مليوني ريال، المبلغ الذي قدرت به الوزارة المعنية آنذاك موجودات شركة كهرباء الزلفي لصاحبها حمود الطريقي.

لكن هذا لم يكن سوى الفصل الأخير في قصة والدي الحافلة التي بدأت قبل ولادته عام ١٩١٢م، بعقود، إذ توفي

والده وهو بعد جنين في بطن أمه. نعم لن يشقى بيتمه بين قومه، لكنه في المقابل لن ينسى أنه لم يرَ وجه أبيه قط، وأن أباه الذي فارق الحياة، لم يرَ وجه فلذة كبده، وهو، بعدُ، مضغة في رحم زوجته لولوة بنت مسند بن راشد الفنيسان (الفضلي).

فارق الأب سليمان الطريقي الحياة، وكفل صهره، عبدالعزيز بن مسند بن راشد الفنيسان (الفضلي)، وليده حمود. كانت مكافأة كبيرة من السماء وتعويضًا لأبي الذي ولد يتيمًا، أن رزقه الله كفالة خاله ابن القبيلة العريقة الشهيرة بالكرم، وإليها يعود نسب كريم العرب حاتم الطائي، فكان الجد عبدالعزيز كأنه حاتم آخر، على الرغم من شظف العيش الذي كان قدر الجميع آنذاك، في جزيرة العرب، لكن الجد عبدالعزيز الفنيسان، حاتم الطائي الآخر، لم يكن بالرجل الذي يثنيه شظف العيش عن المروءة التي كانت رأس مال الناس في زمن عزت فيه رؤوس الأموال، قبل ما يربو على مائة عام من الآن. بدافع من الواجب قسم عبدالعزيز الفنيسان رزقه وقلبه بين أبنائه وابن أخته اليتيم، فكان هذا أول دروس الحياة التي بدأت قبل أن يعي الصغير حمود الحياة ويدرك دروسها، فكلما تأمل رحلته في العالم، الرحلة التي بدأت بحادثة فقد أبيه قبل أن يولد، ثم حادثة

فقد أمه بعد ولادته، فانقطعت عنــه أسباب البقاء الوالدية، واتصلــت به بدلاً منهــا أسباب البقاء بقــوة معروف العطاء الإنســاني التي تجلــت في شخص خاله، فأحــب المعروف وأحــب العطاء، وأصبحــا رفيقي دربه المزدحــم بالأحداث والتحولات والأسفار البعيــدة التي بدأها في سن الطفولة، ثم لم تتوقف إلا بتوقف أنفاسه الطيبة، طيب الله ثراه.

نعم أفلت أبي حمود من سيناريو فقد العائل، بظهور خاله الجد عبدالعزيز على مسرح حياته، أفلت من سيناريو اليتم بعدما ملأ الخال خانتي الأب والأم معًا، لكنه لم يفلت من سيناريو افتقاد خاله طويل الأسفار في رحلاته التجارية بين الزلفى والرياض، والكويت، والعراق، مع قوافل الجمال التي كانت ما إن تحط رحالها إلا وتشدها من جديد إلى بلد جديد، وكان قلب الصغير قد تعلق بمصدر الحنان والأمان والسند الذي ارتمى عليه لائذًا به من عوادي الأيام.

كان السبيل الوحيد أمام الصغير ليقطع شهور الترقب والانتظار في غياب خاله عبدالعزيز، أن يصبح أحد أبطال مشهد الغياب الطويل الذي ألِفَه أهل نجد في ذاك الزمان؛ طلبًا للأشياء التي كانت تضنّ بها صحراؤهم، وما أكثرها، فتعلق الصغير بخاله الذي وجد في رغبته الجارفة في مرافقته في أسفاره، بشارة على أن ابن أخته اليتيم، سيصبح

من ذوي الشأن حين يشتد عوده ويبلغ مبلغ الرجال. ولقد صدق حدس الجد عبدالعزيز في ابن أخته الذي اتخذ مكانه بين الرجال في القافلة كأنه رجل صغير، وعيناه على خاله وملهمه، يراقب أفعاله وأقواله، ويتجشم عناء الأسفار، يشد عقالات الإبل، ويقدم لها العلف والماء، ويحمل على ظهورها الأمتعة.

وقد بدت أمارات النباهة على الصغير حمود، في ذاك الزمان حين لم تكن الاختبارات الدراسية هي من تقيم مستوى نباهة الصغار، فلم تكن هناك مدارس من الأساس، بل تقاس نباهة الصغير بمقاييس الرجال التي يعرفونها ويُخضعونه لها، ولقد نجح الصغير في اختبارات الكبار التي منحته درجة ذكاء عالية، كما نجح في اختبارات الصبر والجلد والتحمل الضرورية لقطع المفازات تحت شمس دانية من الرؤوس، ووسط زمهرير يجلد أجسادًا لا تجد حولها ما تتقيه به. كان الصغير قوي البنية مع قصر قامته؛ لذا لقب بـ«الرويبخ»، وهو لقب ورثه من أسلافه بعدما خرج إلى العالم يحمل أبرز خصائصهم الجسدية، قصر في القامة، وقوة في البنيان.

هكذا اعتاد والدي منذ أعوام عمره الأولى بذل العرق والجهد وتحمل المشاق من أجل الوصول إلى كل شيء في

حياة أصبحت سفرًا طويلاً لا يعود من وجهة فيه إلا ليسافر إلى وجهة جديدة، حتى مراحل عمره سافر إليها، إذ بلغ أشُدَّه بين تلك الأسفار، ونَمَت خبراته وعلومه مع أيام عمره يومًا بعد يوم، حتى بلغ طور اليفاع، وأصبح شابًا قويًا فتيًا، وكان هذا يستوجب في ذاك الزمان أن يحفظ نفسه بالزواج، ويكوّن أسرة. وواقع الأمر أن هذه لم تكن، فقط، خواطر أبي المشغول بالعمل المتواصل الذي تزداد أحماله وأثقاله على كتفيه يومًا بعد يوم، بل كانت، أيضًا، خواطر الجد عبدالعزيز، وكانت قد تقدمت به السن، ولم تعد لديه القدرة على جهد القوافل ومشقة الأسفار، فأراد أن يولي على تجارته قويًا أمينًا يخلفه في ماله، ولم يجد أقوى أو أأمن من ابن أخته الذي صنعه على عينه وألقى عليه محبة منه، يخلفه في ماله، وأيضًا في عياله، فما كان من الجد عبدالعزيز إلا أن زوج الوالد من ابنة أخته «وضحى»، وبعدها ابنته «مُزنة»، في خطوة تَوَّجَتْ عمرًا من العطاء من خال بمرتبة أب وأم، وليس أبًا وحسب، لابن أخته الذي كان عند حسن ظن خاله به، فكان كل يوم يثبت لخاله أن خير من اختاره لابنة أخته ولابنته القوي الأمين، ولم يكن يجد فرصة لإثبات محبته وولائه لخاله الكريم الحنون، إلا واغتنمها كأنها صفقة العمر، ولعل أكبر تلك الصفقات التي

أدارها والدي في حب خاله الجد عبدالعزيز، يوم زار الملك سعود الزلفي، فما كان من والدي إلا أن جهز شاحنة محملة بالقرع العسلي (اليقطين)، ووقف بها عند مفترق الطرق في طريق عودة الملك، وقدمها إلى جلالته، قائلاً: «هذه هدية يا طويل العمر»، فقال له الملك سعود، رحمه الله: «هديتك يا الرويبخ مقبولة وموفورة.. خلها عندك وهي مقبولة»، وأمر بإجراء مخصصات سنوية لوالدي، فما كان منه إلا أن أهداها بدوره إلى خاله عبدالعزيز، وظلت تصله إلى أن لقي وجه ربه، رحمه الله؛ تعبيرًا له عن ولائه ووفائه وبره بخال كان له كل شيء وكل أحد في الحياة، فلم ينقطع عنه في حياته، وبعد مماته ظل يعطر بطيب الأحاديث ذكراه.

صدق حدس رجال القوافل، وصدق حدس الجد عبدالعزيز في ابن أخته، وبالفعل، أصبح الشاب حمود ظاهرة في عالم المال والأعمال التي كانت تُدار على ظهر قوافل الجمال آنذاك، فوسع دائرة نشاطاته التجارية، حتى أصبح يتاجر في كل شيء، يبيع كل شيء، ويشتري كل شيء، وأصبحت أخبار سفرهٍ وعودته حديث أهل الزلفي الذين يترقبون عودته محملاً بمواد حياتهم وإعاشتهم، من حواضر العراق، والكويت، وغيرها، بعدما ينتهي من بيع حمولته من الجلود والصوف المغزول وجنى النخل

النجدي، على أهلها، ويعود منها محملاً بالسكر والأرز والأقمشة والثياب ولوازم النساء، بل، وعلاجات بعض الأمراض، فكان قدومه على الزلفي بمثابة قدوم الحياة على أهلها، وسفره ببضائع أهلها، يعني دوران عجلة الاقتصاد القائم على صناعات قومه المحلية التي كانت تجد طريقها إلى حواضر المنطقة العربية على ظهر قوافله، حتى أصبحت تجارته التي كانت تتسع يومًا بعد يوم، وتطرق أبواب حواضر جديدة، فلكًا تدور فيه عجلة اقتصاد أهل الزلفي آنذاك.

وكما كان لرحلة قافلة حمود الطريقي خريطة طريقها في دروب الصحاري وفي أسواق مدن المنطقة، كان لعودته طقوسها التي يعرفها أهل الزلفي، تمامًا كما يعرفون مواقيتها فكانوا يترقبونها كالأهلّة. كانت تبدأ رحلة خروجه إلى الناس بعد الحصول على قسط من الراحة من عناء الرحلة الشاقة، بجيرانه وأحبائه، حيث يوزع الهدايا التي جلبها للجيران، ثم يتوجه إلى المسجد لزيارته، والسلام على الإمام والقائمين على المسجد فيخرج زكاته أو صدقاته ويقضي فروضه، وبعد فراغه من صلاة العشاء يكون قد دخل وقت الولائم التي كان الأصدقاء والتجار يقيمونها له، ابتهاجًا بعودته، فيتحلق الجميع حوله ليحكي لهم ما مرّ به في

رحلاته، ويروي لهم قصصًا شائقة عن البلدان التي زارها سندباد مدينتهم، وعن الناس الذين قابلهم، فقد كان الوالد لبقًا يجتذب أسماع جلسائه فيصغون إلى حكاياته عن العالم الخارجي، وكانت أحاديثه تلفازهم الذي يشاهدون فيه العالم قبل أن يكون هناك تلفاز، وجسرهم الذي يعبرون عليه إلى الآخر، في زمن كان فيه الآخر غيبًا على الجميع، إلا على حمود الطريقي، الصغير الذي تعلق بثوب خاله كأنه بساط الريح الذي سيحمله إلى العالم، ولم تكد تنقضي أعوام قلائل حتى أصبح للصغير حمود بساطه الذي يحمله إلى العالم، فيعود منه محملاً بخيراته وحكاياته.

لكن «بساط الرويبخ» الذي طوف به بين الحواضر العربية، اتسع فيما بعد لبضائع أخرى لم يعتدها أهل الزلفي، بل أهل المملكة جميعًا آنذاك، حيث بدأت تعبر منتجات أخرى عالمية على جسر الطريقي الذي أقامه بين الزلفي والعالم، منتجات بدت لأهل الزلفي آنذاك ضربًا من السحر الذي عودهم عليه ساحر الزلفي وصانع دهشتها في زمن مبكر من عمر الزلفي والمملكة.. كان أول عروض صانع الدهشة عام ١٩٣٧م يوم حدثهم عن أن هناك (سيارات) عربات ضخمة تسير ذاتيًا من دون خيول أو بشر يجرونها، وأن الواحدة منها تحمل حمولة عشرة جمال، وتقطع في

يوم واحد ما تقطعه الجمال في عشرة أيام، ولا تحتاج إلى ماء أو أعلاف، شاهدها هناك في العراق والكويت وقد دخلت تلك البلدان على أيدي الإنجليز، لكن القوم لم يستوعبوا الفكرة، ولم يرتفع سقف خيالهم إلى هيئة تلك العربة العملاقة التي تعمل بقوة دفع الوقود، حتى في ذلك اليوم الذي دخل فيه والدي على أهل الزلفي بالشاحنة التي أتى بها من العراق.. لم يستوعبوا، وقفوا مذهولين غير مصدقين هذه الآلة العملاقة التي تتحرك بقوة، مصدرة هذا الهدير القوي من محركها.

كانت الشاحنة من نوع (فورد) التي أذهل بها والدي أهل الزلفي، أول سيارة تدخل الزلفي، وكان دخولها أول سبق لأبي يسجل باسمه بين قومه، فأصبح حمود الطريقي أول من أدخل السيارات إلى محافظة الزلفي، في زمن لم تكن كلمة محافظة فيه معروفة بعد، لكنه لن يكون السبق الأخير، وعلى الرغم من كونه سبقًا مدهشًا حير الناس لأعوام كلما سمعوا هدير محرك سيارة والدي تتحرك في طرق الزلفي متوجهًا إلى رحلة تجارية أو عائدًا منها، إلا أن السبق اللاحق سيكون أكثر إدهاشًا، وأوقع أثرًا، وأعم نفعًا؛ ففي عام ١٩٥٢م عاد إلى أهل الزلفي بآلة أخرى حرمت عيونهم النوم لأشهر، وربما لسنوات، بعدما قلب ليلهم نهارًا، بإحضاره أول مولد

للكهرباء إلى مدينة الزلفي، وتعليق المصابيح في الأعمدة لتنير ظلمة الليل، ودخول الزلفي وأهلها عهدًا جديدًا ألحقها مبكرًا بمضمار سباق التمدن بين مدن المملكة، بل وضعها إلى جانب أهم مدنها؛ الرياض، وجدة، ثم الزلفي، في انفراد كبير، أمّن لمدينة صغيرة مكانة لم تكن تتاح لها، في وصافة أكبر مدينتين في المملكة، فقط لأنها رُزِقَت هذا اليتيم النبيه الطموح الذي أدرك أن مدينته ليستَ أقل من المدن التي يتردد عليها في الكويت والعراق، حتى تبقى جاثية طوال الليل تحت قدمي الظلام، في حين تنعم مدن أخرى بنور المدنية الذي بدأ يزحف على ليل العالم من حولها.

كانت دهشة الجميع عارمة بهذه الوثبات التي تشهدها مدينتهم المختبئة وراء نفود الثويرات، لكنّ أخبارها عبرت النفود إلى ما حولها، أما والدي حمود، فلم يكن مندهشًا على الإطلاق، أو حتى معجبًا بالمنجز الذي تحقق، فسقف خياله كان أعلى من ذلك بكثير، ومدى طموحه كان أبعد، وحلمه كان أوسع من إدراك الجميع، حتى إنهم عدوه رجلاً به مس أو جنون يوم أعلن للجميع عن نيته إنشاء شركة خاصة للكهرباء في الزلفي، تنير المنازل والشوارع والمساجد، وتمد البيوت بالطاقة التي تدير الأجهزة المنزلية، بعدما بدأت معالم المدنية الحديثة تدخل مدن المملكة الكبيرة.

نعم كان على مدن كثيرة أن تنتظر لعقود حتى يدخلها تيار الكهرباء، لكن مدينة صانع الدهشة كانت الأسبق إلى هذا المنجز المدني الفريد الذي جعلها واحدة من أبرز مدن نجد، ووجهة للنور الذي أضاء ظلامها، نور حقيقي، وليس خيالاً من خيالات الشعراء، ولا مجازًا من مجازات الخطباء، نور الكهرباء.

* * *

كان ولع والدي، غير المتعلم، بالعلم والمدنية، بلا حدود، وكان هذا أحد أقدم الدروس التي علمتني أن الإيمان بقوة العلم وبأهميته ليس مرتبطًا ارتباطًا شرطيًا بالمستوى التعليمي لأحدهم، ففي حين كان أبي الرجل الذي لم يتعلم يركض وراء منتجات العلوم والتقنية الحديثة، كان هناك آخرون يثبطون همته، ويضعضعون عزيمته، وفي مقابل شغف أبي الذي لم يقرأ ولم يكتب، بالعلم. قابلت في حياتي أشخاصًا يحملون مراتب علماء، وإيمانهم بالعلم لا يتجاوز حناجرهم، وحولوا التعليم إلى عملية روتينية جامدة، وحولوا منابره إلى مواقع وظيفية تمكنهم ذراعها القوية من ليّ أذرع الآخرين والتحكم فيهم وتحجيمهم، بل تقزيمهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لتغذية شعور داخلهم بالأهمية والهيمنة، كأنهم أباطرة لا علماء. ففي مقابل أجيال من

الطلاب والعلماء أرهقهم أمثال هؤلاء، بل وعطلوا مسيرتهم أحيانًا، هناك أجيال أخرى أضاء حمود الطريقي الرجل الذي لا يقرأ ولا يكتب، طريقهم؛ طريقهم الذي يمشون فيه ليلاً، تمامًا كما أنار منازلهم ليقرؤوا ويتعلموا ويوسعوا مداركهم بالإصغاء إلى المذياع والتلفاز، وكذلك طريقهم الذي يتقدمون فيه إلى آفاق أحلامهم، فما من شك في أن دخول نور الكهرباء وطاقتها في تلك الأعوام المبكرة من عمر الدولة الوليدة، ألقى بحجر كبير في بركة الماء الراكدة، وحفز كثيرًا من عقول أبناء الزلفي على التفكير خارج الصندوق، وعدم الاكتفاء بالمألوف، والتطلع إلى الجديد والمختلف، تمامًا مثلما فعل هذا التاجر الذي بدأ حياته جمّالاً صغيرًا، ثم ختمها مالكًا لشركة كهرباء الزلفي.

* * *

كانت تجربة والدي ملهمة لأهل الزلفي، لكنها كانت ملهمة لنا - نحن أبناءه - على نحو خاص، بحكم أننا كنا الأكثر تعرضًا لإشعاع شخصيته القوي، الإشعاع الذي أنار بلدًا بشوارعها وبيوتها ومساجدها وعقولها، وكان من البديهي أن يكون الأوفر حظًا من إشعاعها أبناؤه الملاصقون لتجربته، المصغون لأحاديثه. كنا وافري الحظ من توجيهاته وحكمه ووصاياه ودروس حياته التي كان يعلمنا بعضها في

مدرسته الوالدية، وتعدل جامعة من كبرى الجامعات التي التحقت بها على مدار رحلتي العلمية. نعم يمكنني القول إنني خريج مدرسة حمود الطريقي، الأمي الذي أضاء الطريق للمتعلمين، خريج جامعة حمود الطريقي، التاجر الذي آمن بالعلم كما لم تؤمن به نُخَب الكثير من الجامعيين الذين قابلتهم في حياتي، ولم أتعلم منهم سوى الانحناء لذكرى أبي الرجل العظيم الذي تجاوزهم في إخلاصه للعلم.

إن ارتباط سيرة أبي بالنور كان أول درس تعلمته في حياتي، فكثيرًا كنت أفكر: ما الذي يدفع رجلاً أميًا إلى التفكير في أن يخاطر بعوائد استثمارات أعوام تجارته الطويلة في إنشاء شركة للكهرباء؟ ما علاقة رجل عادي لا يقرأ ولا يكتب بالكهرباء؟ أبي لم يكن مخترعًا ولا حتى عاملاً في شركة نفط أو مصنع . أبي كان مثل جميع التجار في تلك البلاد آنذاك، وكانوا مع الوقت هم علية القوم وأهل المال، ولقد رزقه الله رزقًا واسعًا، وكان الأضمن له، بل والبديهي أن يواصل التوسع في تجارته، أو يتوجه، على أبعد تقدير، إلى الوكالات التجارية، ولم تكن غريبة أو بعيدة عليه، بل بالفعل كان أبي، بعدما توسعت أعماله على نحو كبير، إثر نجاحه في تأسيس شركة الكهرباء، أول

وكيل لعلامة سيارات مرسيدس الألمانية في المملكة، وهذا يعني أنه كان بإمكانه أن يواصل رحلته في التجارة التي بدأ بها، وخَبَرَ دروبها، وأتقنها، وجنى منها عوائد مجزية، فما الذي أقحمه في أمور الكهرباء والطاقة هذه؟ أتصور أن الأمر مرتبط بنظرة أبي، رحمه الله، للحياة، بقدرته على التفكير خارج العادي والمألوف، برغبته الجارفة في كتابة قصة مختلفة عن الآخرين، بروح التحدي التي كانت تميز شخصيته، رحمه الله. أبي لم يكن يقبل بالهزيمة أبدًا، الهزيمة أمام أهدافه بالطبع، أما أمام الناس، فلم يكن أبي يبحث عن انتصارات من هذا النوع، بل كان مسالماً يرفع للجميع الرايات البيضاء، فيتجاوز عن أخطائهم في حقه، بل لا يراها بقرار شخصي منه، ويترك لهم المجال لتسجيل ما شاؤوا من انتصارات عليه، فمما حكاه لي رحمه الله، أن أحدهم، ولم يكن يحب أبي، هكذا من دون أسباب، وكان دائم التعبير عن هذه الأحقاد التي يكنها له، في حين كان والدي يلقاه بوجه طلق ويدعوه إلى كل مناسبة عنده، فحدث أن دعا هذا الرجل أحد الوزراء، ودعا إلى المناسبة جميع أعيان الزلفي، إلا والدي، وحين وفد الضيف، تسامى والدي على موقف الرجل الصغير، وتوجه إلى المجلس لاستقبال الضيف وأداء الواجب، وسلم عليه ورحب به مع أعيان الزلفي، واتخذ

لنفسه مجلسًا قاصيًا، وعلى الرغم من ذلك أسرف الرجل في غيّه فلم يقدم القهوة لأبي، ولم يحرك شيء من هذا ذرة ضغينة في قلب والدي، رحمه الله. كان يدرك أن عداء الآخر له إعلان حقد وغيرة، وشهادة من الآخر بأن والدي أفضل منه، وأنه بذلك قد حسم الأمر مقدمًا، وأن أي سلوك، قد يبدو مهينًا يصدر عنه، هو في جوهره اعتراف جديد وصارخ بالهزيمة والشعور بالنقص، وكان أبي يرى أن هذا الشعور في حد ذاته، أكبر عقاب يمكن أن يناله حاقد، من دون تدخل منه.

كان هذا أحد دروس الفلسفة الكبيرة والمهمة التي تعلمتها في مدرسة الوالد، والتي التزمتها في حياتي كلها حتى اليوم، فأمام كل محاولة للنيل مني كان شعوري بالنجاح يتعمق، وأمام كل حجر عثرة يوضع في طريقي كنت أكتشف أن هناك حاقدًا يرغب في تعطيل مسيرتي، وأمام كل إهانة أو تلفظ علي، كنت أدرك أن أحدهم يضايقه نجاحي إلى حد فقدان السيطرة على مشاعر الكراهية التي تملأ قلبه، فتطفح على لسانه. هكذا تعلمت من أبي السمو فوق الصغار والصغائر، وتجاهل كل ما قد يعطل رحلتي، أو ينال من سلامي النفسي الذي يعود لأبي الفضل في قدرتي على الاحتفاظ به على مدار أعوام حياتي، على الرغم

من المحاولات الكثيرة من بعضهم للنيل منه، وجَرِّي إلى صراعات، وجدت أن اجتنابها هو الانتصار الأكبر على كل طرف حاول أن يجرني إليها.

* * *

مع إعلان لوحات الطريق قرب وصولي إلى مدينة الزلفي، حيث منزل سيدي الرويبخ العظيم، وقبره، ومسرح ذكرياتي القديمة معه، الذكريات التي مر عليها الآن أكثر من نصف قرن من الزمان منذ وفاته، طيب الله ثراه، عام ١٩٧٢م، تتحرك بركة الذكريات داخلي بقوة، كأن قمة جبل هوت فيها، تضطرب، تموج بي وبكل ما حولي، ترتفع أصوات أحاديثه، نداءاته، حزنه، ضحكاته، الأوقات الصعبة، والأوقات الجميلة، مشاهد التحدي، ومشاهد النجاح، والرويبخ العظيم يخلع عقاله وشماغه ويلقي بهما في الأرض معلنًا نجاحه في تحدي العمر، يوم عملت محولات شركة الكهرباء، وأضاء كل شيء بقوة فجأة، وخرجت الزلفي عن بكرة أبيها تشهد مولد عهد النور القوي الذي غمر كل شيء، وأضاء كل شيء، ومد كل شيء بتلك الطاقة الهائلة التي جعلت من الزلفي مدينة نابضة بقوة، بفعل هذا القلب القوي الذي يتربع على الأرض الفضاء التي تربط شمالها بجنوبها، شركة كهرباء الزلفي لصاحبها حمود الطريقي.

عِتق «المؤخّـــرات»

عِتق «المؤخِّـرات»

نعم حين أصل إلى منزل العائلة، وتستقبلني المزرعة وأسراب الحمام، وقبل أن أدخل إلى غرفة سيدتي الوالدة، بارك الله في عمرها وشفاها، أتلفت حولي لعل عيني تقع على أبي جالسًا في أحد الأركان.. في كل مرة أفعل هذا وأنا أعلم علم اليقين بأنه لن يحدث، وأنه لا مكان له إلا في أركان عقلي، لكنني أعزي نفسي بأن عظامه قريبة في الجوار، عظامه الطاهرة لا تزال في المكان.

يخطئ من يتصور أن نواياه الطيبة ستجعل الجميع يلقون بالورود في طريق مسيرته نحو أهدافه، فلو كان هذا الاعتقاد صحيحًا لما وجد الأنبياء معاناة في نشر رسالاتهم، ولا تجشموا

عناء هذه المعارك التي أعلنها، وأبطنها أيضًا، ضدهم، أعداء النجاح.

وواقع الأمر أن كلمة أعداء النجاح التي اكتسبت صيتًا واسعًا حتى أصبحت كلمة دارجة، بل تستخدم في صناعة الكوميديا أحيانًا، أُطلقت هكذا من دون تفسير أو تساؤل حول الأسباب التي تجعل بعضهم يعادي النجاح!!

ولسنا في حاجة للذهاب بعيدًا للبحث عن تفسير موجود بين أيدينا نقرؤه كل يوم، بل نتعبد به آناء الليل وأطراف النهار، فالله – سبحانه وتعالى – نقل إلينا وجهات نظر أعداء نجاح أصحاب الرسالات السماوية من الرسل والأنبياء، وأسباب رفضهم، بل معاداتهم الأنبياء، وعلى هذا المقياس القرآني الدقيق، يمكنك الانطلاق في تفسير ما شئت من معضلات حياتنا البشرية.

فمن أسباب محاربة الرسل والأنبياء الكبر والغرور؛ وذلك حينما نظر المكذبون إلى ما عندهم من القوى والقدرات فازدهوا وأبوا الانصياع لتصديق أنبيائهم كبرًا وغرورًا، يقول – تعالى – عن عاد الذين كذبوا رسولهم هوداً – عليه السلام – : ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي**

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فصلت:١٥، وقال - تعالى - عن فرعون الذي تكبر وتجبر؛ فكفر بموسى وهارون: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾** المؤمنون:٤٥-٤٦.

ومن الأسباب أيضًا: احتقار النبي -صلى الله عليه وسلم- واستصغار شأنه؛ كما قال - تعالى - عن شأن قريش المكذبين: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾** الزخرف: ٣٠-٣١.

ومن الأسباب الداعية إلى تكذيب الأنبياء كذلك: النظر إلى ضعف السابقين إلى اتباع النبيين، والمبادرين إلى الاستجابة لهم بادئ ذي بدء؛ فإن صلف المكذبين وغرورهم زادهم عن الحق بعداً أن يكون الضعفاء مشاركين لهم في اتباع الأنبياء، قال - تعالى - عن قوم نوح -عليه السلام-: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الشعراء: ١١١.

ومن أسباب تكذيب الأنبياء: الحسد أن يؤتى النبي النبوة من دونهم؛ كما حصل من اليهود لنبينا -صلى الله عليه وسلم-، قال - تعالى - : ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ**

عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء:٥٤، وكما كان حال بعض كبراء قريش، قال -تعالى-: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ الأنعام:١٢٤.

ومن أسباب تكذيب الأنبياء كذلك: التقليد الأعمى للآباء والأجداد والأعراف السائدة؛ كما قال - تعالى- : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ البقرة:١٧٠.

* * *

وبعيدًا عن أصحاب الرسالات السماوية وأصحابها من الأنبياء المرسلين، فحين نعود إلى أصحاب الرسالات الإنسانية والعلمية من البشر العاديين المجتهدين في إعمار الأرض وتعبيد سبلها أمام الناس والاضطلاع بمهام خلافتهم الإنسانية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وكان والدي رحمه الله من هؤلاء النفر من الناس الذين يمثلون فئة المطورين المستنيرين الباحثين عن كل جديد يدفعون به عجلة الحياة إلى الأمام، تجد أسباب رفضهم، بل محاربتهم، من قِبَل نفر

آخرين يمثلون قوى الظلام من المعوِّقين الظلاميين الذين يضعون العراقيل في طريق كل طَمُوح يسعى إلى الإتيان بجديد ينفع الناس ويمكث في الأرض، أو على الأقل ينفع فئة منهم، وهذا ينطبق على سيناريو قصتي التي شاء الله أن تكون نسخة أخرى مطوَّرة، من سيناريو قصة أبي.

كان الهجوم على أبي ضاريًا من فئة من أهل الزلفي، كانوا متخصصين في التسفيه من مشروعه الكبير الذي وعد الناس به، مشروع شركة الكهرباء، كان الكثيرون يشككون في قدرة أبي على تحقيق هذا «الهراء» الذي يتحدث به، وقرر أن يضع فيه جميع ما جمعه من أموال على مدار عقود من التجارة، ثم عقود أخرى من مشروع سقيا شمال المملكة المشروع الذي كان مصدر المال الرئيس الذي جمع منه أبي رأس المال اللازم لإنشاء شركة الكهرباء، وكان يقوم على أن تسند وزارة الزراعة والمياه، آنذاك، إلى والدي تزويد منازل قرى وهجر منطقة حائل بماء الشرب، بعدما تقدم بطلب للتعاقد مع الوزارة بهذا الخصوص، وبحكم خبرته في استيراد الحافلات والسيارات، فاستورد خزانات مياه متنقلة فئة مرسيدس من ألمانيا، وبدأ مشروعه. كانت عوائد هذا المشروع كبيرة، ومجزية، فكان يزود المنازل بماء الشرب، ويحصِّل الفاتورة الإجمالية من الوزارة. وأذكر

أنني كنت أراه يوم التحصيل يعود بـ«خِياش» من المال إلى المنزل، خياش المال هذه هي التي ادخرها لتحقيق حلمه الكبير، حلم إنشاء شركة الكهرباء، الحلم الذي كان مادة لسخرية بعضهم، في الوقت الذي كان فيه أملاً لآخرين أحبوا حلم الرجل الذي عهدوا فيه الطموح والرغبة في التجديد والتطور والاختلاف، لكن المقاومة كانت كبيرة من قِبَل الفريق الرافض للأسباب التي ذكرناها آنفًا، الأسباب نَفسها التي كانت سبب معاناة رسل الله، ورسل الإنسانية، وكل إنسان يأتي بجديد مختلف إلى الناس، وتتركز في الاستكبار والخوف من أن يتسبب هذا في علو قدمه على غيره من وجهاء قومه وكبرائهم، بعد تَحَقُّق هذا الفتح الكبير الذي سينير حياة الناس، فضلاً عن أنَ حمود الطريقي حينها، في حال نجاح هذا «الهراء» الذي يتحدث عنه، كان على أبواب قفزة اقتصادية جديدة، ستجعل الفارق بينه وبين أقرانه من الأعيان والوجهاء والتجار سنوات ضوئية، وسيحقق وثبة أخرى بعد وثبة مشروع السقيا الذي كانوا يدركون قدر العوائد الكبيرة التي حققها، وسعى بعضهم في ضرب الأسافين بين والدي ووزارة الزراعة والمياه، في محاولات مستميتة لإفقاده عقد المشروع، أو على الأقل؛ لتكدير صفوه ووضع العراقيل في طريقه، وكان الخوف لدى هؤلاء، وكانوا من الوجهاء، ولا ينقصهم إلا أن يرضوا

بقسمة الله بين عباده، أن ينجح حمود الطريقي بالفعل، وينفذ «الجنون الذي يهذي به» عن إنشاء شركة كهرباء تنير الزلفي كلها، وتشغل الآلات في المنازل، وحينها ستصبح شركة حمود الطريقي قبلة لأهل المدينة يتقدمون إليها بطلبات التوصيل، أو لسداد فواتير التحصيل، ولن يكون في وسع أي من الفريق الرافض حينها تعطيل مسيرة هذا الكيان بعد إنشائه، بل سيكونون أول المتقدمين للاستفادة من الخدمة التاريخية التي ستدخل بلدهم للمرة الأولى، وستُدخلهم التاريخ أيضًا، بوصفهم ثالث مدينة تدخلها الكهرباء بعد الرياض وجدة. وعلى الرغم من أنه منجز لا ينسى في تاريخ المدينة، وعلى الرغم من أنه سيكون مضافًا إلى رصيدهم الاجتماعي والحضاري جميعًا، إلا أنهم لم يكونوا يريدونه باسم حمود الطريقي، مع أنه لولا الله ثم حمود الطريقي، لظلوا في ظلامهم إلى أن تصل إليهم خطوط الضغط العالي التي تنفذها الدولة وفق الجدول الزمني المحدد، ولولا حمود الطريقي، لما رأوا السيارات إلا بعد عقود من ظهور أول سيارة أتى بها إلى الزلفي، ولولا حمود الطريقي لما رأوا أول طاحونة دقيق كهربائية في حياتهم، ولولا حمود الطريقي الذي أنشأ أول محطة محروقات في الزلفي لظلوا يعانون في جلب المحروقات من المناطق المجاورة، ولولا حمود الطريقي، لما وصلت

مياه الشرب المحلاة إلى بيوت المواطنين في مناطق المملكة البعيدة بعد استيراده الخزانات المتحركة من ألمانيا، والتعاقد مع وزارة الزراعة والمياه. كان المهم دائمًا ألا يسجل هذا باسم حمود الطريقي، وتصبح الخدمات الرئيسة في المدينة في يديه؛ الماء، والكهرباء، وقبلها المواد التموينية، ومواد الإعاشة، والكساء، وغيرها من البضائع التي كان يأتي بها من حواضر العالم العربي، بل من مدن العالم.

لم يكن هناك منافس لوالدي في جميع أنشطته التي تفرد بها حتى نفسر الأمر بأنه الغيرة العادية والتنافس العادي المقبول على الفرص بين التجار، فجميع أعماله كانت مبتكرة، وأفكاره خارج الصندوق، ومع هذا لم يسلم من الأذى للأسباب نفسها التي لم يسلم من الأذى من جرائها كل من يأتي بجديد مختلف، ويسعى إلى قيادة تغيير في محيطه الاجتماعي، حالة من الخوف من قِبَل بعض مراكز القوى في المجتمع؛ خشية أن يسلبهم هذا الجديد مكانتهم التي اكتسبوها بحكم الأقدمية التاريخية، أو ترجح كفة من يأتي بهذا الجديد على كفتهم بعد أن كانوا جميعًا أندادًا ونظراء. يفسر هذا محاولات الإساءة والاستعداء الدائمين من قبل بعضهم تجاه أبي، الإساءات التي كانت تبلغ حد شتمه والسخرية منه من قبل أحدهم، وقد رأيت هذا بعيني

وأنا طفل صغير، وأذكر أنني بكيت ذات مرة من معاملة هذا الرجل، وسخريته من أبي، لكن ثمة قصة أخرى حكاها أبي لنا عن رجل دخل عليه، فوجد بين يديه مصباحًا كهربائيًا (لمبة) في زمن عمله على بناء شركة الكهرباء، ولم يكن الناس يعرفون أشكال المصابيح المنزلية، فسأله: «ما هذا الذي بيدك؟»، فأجابه بأنه مصباح كهرباء يضيء إذا تم توصيله بمصدر كهربائي. فعاد السائل يسأل: «هل تريد أن تفهمني بأن هذا سيضيء يومًا ما؟»، فأجاب والدي: «نعم». فما كان من الرجل إلا أن قال لأبي: «إذا أضاء هذا الشيء، فضعه في مؤخرتي». فما كان من والدي يوم دارت محطة الكهرباء، وكانت تعمل بطاقة الديزل، إلا أن دعا الرجل ليذكره برهانه على فشله، وبوعده الذي أصبح واجب النفاذ، وليخبره أيضًا بأنه عفا عنه، وأعتق مؤخرته.

كان أبي رجلاً صبورًا على نحو لم أشهد له مثيلاً في حياتي، لكن كان بوسعي أن أرى طاقة الغضب الذي كان يكظمه على مدار سنوات من الاستهزاء والسخرية والإحباط والتندر على المشروع، في اليوم الذي حدده المهندسون العرب الذين جلبهم لبناء المحطة، لإطلاقها، كان أبي يحبس أنفاسه في انتظار لحظة إدارة المحطة، وكان الناس يتحلقون في انتظار انطلاق مكوك وجودهم كله إلى

سماء المدنية ليهبطوا فوق كوكب الأرض الجديد في مدينة كانت خارج مدن العالم المضاءة بالكهرباء قبلهم بعقود، فما إن أدار المهندسون مفاتيح التشغيل، وعملت المحطة، وأضاءت جميع المصابيح المتصلة بها، حتى وقفت غير مصدق انفعالات وجه أبي، وعلامات النصر التي ترسمها كل عضلة فيه، ويده وهي تقبض على عقاله وشماغه معًا بقوة وترتفع بهما ثم تهوي بهما إلى الأرض، كأنه يتخلص من هم السنوات وسخرية وجوهها دفعة واحدة.. كأنه يطرح كل من سخر منه وتندر عليه أرضًا مرة واحدة. دارت محولات شركة كهرباء أبي حمود الطريقي، ودارت معها عجلة الحياة والتنمية في الزلفي، وتعطلت ماكينات السخرية والإساءة والتشكيك التي أصبحت هي وأصحابها نسيًا منسيًا.. سكتت للأبد، كأنها ظلام الزلفي الذي بددته أنوار شركة أبي.

* * *

انقضت دورة حياة حتى أصبحت في مكان أبي نفسه، أتطلع إلى البحث عن موطئ قدم للعلم الجديد الذي عدت به إلى وطني من بريطانيا، ثم عادت هذه الأنماط البشرية المعادية للنجاح ولكل مختلف يأتي بجديد إلى الظهور على مسرح حياتي من جديد. كان أبي قد ذهب إلى رحمة ربه،

وكنت أنا الهدف هذه المرة. عراقيل كثيرة كانت توضع في طريق رحلتي نحو تعبيد الطريق أمام أبحاث الإعاقة، وأمام المعاقين في بلادي، كنت عائدًا بحماسة كبيرة بهذا العلم الجديد الذي أتيت به لهذه الفئة الغالية، حصاد عشرة أعوام من الدراسة المتواصلة في المملكة المتحدة، بدءًا من الثانوية العامة، مرورًا بالبكالوريوس، فالماجستير والدكتوراه. كنت متشربًا الأداء الإنجليزي في العمل، متحمسًا، مندفعًا بقوة نحو تحقيق أهدافي، ونقل العلوم والخبرات التي أتيت بها من الخارج لتوطينها في بلدي، لكن مقاومة الجديد الوافد، ومقاومة التغيير، كانت في انتظاري، المقاومة نفسها التي كانت في انتظار أبي، وللأسباب نفسها، خوف أصحاب مراكز القوى الوظيفية في الجامعة من خطر الوافد الجديد على مقاعدها، وخوف وجهاء الجامعة على وجاهتهم. كانت هذه أكبر صخرة اصطدمت بها على الإطلاق، وكنت قد نسيت هذه الاعتبارات على مدار عشرة أعوام من الحياة والدراسة في المملكة المتحدة، بل لم أكن أقيم لها وزنًا، فقد غادرت البلاد في سن صغيرة، بعد حصولي على الثانوية العامة مباشرة، ومعظم مفاهيمي عن العلاقات الإنسانية تشكلت هناك في المجتمع الإنجليزي، حيث كانت الأولوية دائمًا للمصلحة العامة، وليس لوجاهة هذا أو ذاك، أو

مكانته، أو موقعه الوظيفي الذي ليس لديه مانع أن يعطل مسيرة البحث العلمي من أجله. نعم كان الاعتبار الأول للأشخاص، لمكانتهم الوظيفية، ومكتسباتهم الشخصية، أما المصلحة العامة، فكانت تأتي في المرتبة الثانية، وربما الثالثة، بل ربما لم يكن هؤلاء منشغلين بشيء آخر سوى التكريس لوجودهم، وللترقي في وظائفهم وشغل المواقع القيادية، حتى تحولت الحياة الجامعية إلى وسط بيروقراطي، أجزم بأنه فوت علينا الكثير من فرص التقدم العلمي، فقط لأن هذا أو ذاك، كان يكرس كل شيء لتعزيز مكانته وترسيخها، وكان على من يرغب في البقاء والاستمرار من أعضاء هيئة التدريس والموظفين أن يكونوا جزءًا من مشروعه وحاشيته، وإلا واجهوا مصير النبذ والتهميش الذي لاقيته، إلا أنني صنو أبي، لم أتورط في هذا النوع من الحروب في حياتي، لكَنني في المقابل لم أفرط في أهدافي وأحلامي، وحققتها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فحين اصطدمت بصخور البيروقراطية التي وضعت في طريقي عمدًا في الجامعة، فقط لأنني تصرفت على نحو أكثر عملية بما يخدم المصلحة العامة، شرعت أفتح لنفسي، وللمعاقين، أصحاب قضيتي، نافذة أخرى. لم أكن نارًا تستعر يومًا في وجه أحد، بل كنت سهلاً كالماء، أعرف طريقي إلى الجريان دائمًا، فلا شيء يوقفه.

* * *

كان أبي أسوتي وأنا أتجاوز عن إساءات بعض الزملاء، وسخريتهم من رغبتي الجارفة في التغيير، فلم أكن أعيرهم اهتمامًا، بل ولا أسمح للشعور بالغبن والحزن والإحباط أن ينال من عزيمتي، فتجاربي السابقة في الحياة، وفي المملكة المتحدة، شحذت داخلي الإرادة الحديدية التي ورثتها عن أبي، ضمن تراث تليد تركه سيدي الوالد داخلي، وغادر العالم، فكان كنزي الكبير الذي لم ينضب إلى اليوم، وليس تركته المادية التي تقلصت كثيرًا بعد القسمة الضيزى التي قدّرتها شركة الكهرباء التي أنفق ماله، وشطرًا من عمره فيها، بدراهم معدودات. لكن ما تركه أبي داخلنا جميعًا، أنا وإخوتي، من عزم، وإقدام، وتحدٍّ لكل عوامل الفشل والتعثر التي قد تعترض سبيلنا، كان الإرث الحقيقي الذي جعل صاحب الريادة في مأسسة الأعمال العائلية وتحويلها إلى شركات مساهمة وحوكمتها أخي نايف (أبو سامي) ينهض بأعمال العائلة من جديد، ويعيد إليها ازدهارها بكل إمتياز بعد تسلمه قيادتها، خلفًا للإخوة؛ سليمان (أبو خالد) رفيق درب والدي وحكيم الأسرة -رحمه الله- وعبدالله (أبو عبدالحكيم) -رحمه الله- الإداري المحنك ذراع الوالد الأيمن وناصر (أبو بدر) الدينامو الفني لأعمال

العائلة في حضور الوالد وبعد رحيله، وهو الأب الحاني الذي ساندني في مسيرتي بلا حدود، ودون أن أغفل دور عبدالمحسن (أبو فهد) الأديب المثقف صاحب الأخلاق الرفيعة - يرحمه الله - وكذلك سالم (أبو حمود)، المهندس متعدد المواهب وصاحب الفكر التطويري الذي درس في أمريكا ويسعى لتطبيق معارفه على أرض الواقع وبما يتلاءم مع السياق المحلي، وخالد (أبو فيصل)، المفكّر المرتبط جداً بمجتمعه، لا سيما بسبب شغفه بعلم الاجتماع والعادات والتقاليد والأعراف)، ونجيب (أبو تركي)، المبدع وخبير الامتياز التجاري فيما بعد، أما أنا فكنت أتوشح جَلَد أبي وصبره وعزمه في ميدان آخر، ميدان الإعاقة والتأهيل، معركتي التي اكتشفت خلالها نوعًا جديدًا من الإعاقة، لم أتعلمه في المناهج الإنجليزية، بل تعلمته هنا بالتجربة في بلادي، الإعاقة التنموية التي يتسبب فيها أشخاص يضعون اعتبارات كثيرة شخصية، وعائلية، واجتماعية وسياسية، قبل المعيار العلمي، وقبل الأولوية والمصلحة الوطنية، وأتصور أن حظوظ هؤلاء اليوم تراجعت كثيرًا، بعد إرساء قيم عقد اجتماعي ووطني جديد، يقوم على اقتصاد المعرفة، ويعلي من قيمة البحث العلمي، ويُؤَمِّن الضمانات الكافية للدفع به على المسار الصحيح الذي يخدم خطط التحول الوطني

التي أتى بها الأمير الشاب، صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز ولي العهد، مهندس رؤية ٢٠٣٠ الطموح، القائد القوي الذي كان المشهد في حاجة إليه؛ لتطهير المواقع القيادية في الـوزارات والمؤسسات الحكومية والجامعات والجهات البحثية ممن لم يرق أداؤهم لمستوى طموح هذا البلد، وتسببوا في بقاء جامعاتنا لعقود خارج التصنيف العالمي، فضلاً عن الإرادة السياسية القوية التي تدفع ببلادنا بقوة إلى دخول عصر اقتصاد المعرفة، ما يعني أن الأولـويـة في المرحلة المقبلة للعلم، وليس للأشخاص، ووفق المعايير العلمية، وليس وفق العلاقات والروابط الاجتماعية.

أطول رحلـة علاجيـة في العـــالم

أطول رحلة علاجية في العالم

وعيت الحياة مريضًا، هزيلاً، محرومًا من اللعب مع الأقران، أسعل، وأسعل، وأسعل.. سعال متواصل وبلغم.. كنت هيكلاً عظميًا صغيرًا، حتى الضحك لا أقدر عليه. لم يكن في وسعي أن أشارك صغار العائلة، أو الصغار في الحي أو المدرسة مصارعاتهم، فهذا يعني أنني سأكون أضحوكة الجميع ، فقد كنت خصمًا مثاليًا وجاهزًا يتفوق عليه الجميع ، فضلا عن أنني لم أكن أشعر بالرغبة في المشاركة في شيء من هذا، كأنني خلقت بلا رغبة في الحياة واللعب. فقط شيء وحيد كنت أقدر عليه، هو المذاكرة وتحصيل العلم الذي شغل شواغر طفولتي وصباي وشبابي أيضًا، بعدما

أصبح التحصيل العلمي إدمانًا لم أسع يومًا للشفاء منه، وكان إدماني الوحيد في هذه الحياة.

قالوا إن سبب سعالي المتواصل الذي يشير إلى اعتلال بالرئتين، والذي عرفنا لاحقًا أن توصيفه «تمدد بالشعب الهوائية»، غبار النفود الذي لم يكن يراعي حق الجوار أحيانًا، فيعكر صفو أجواء الزلفي، وكنت أنا من ضحايا هذا الخرق المتكرر من قبل غبار النفود للمجال البيئي لمدينتنا.

لم يفدني مستشفى الزلفي حديث النشأة آنذاك، فقد كانت قدراته أقل من أن تُجديَ نفعًا مع مثل هذه الحالات المرضية المستعصية التي تتطلب علاجًا تخصصيًا، ومؤسسة طبية كبيرة.

كنت دائم التفكير في معاناتي الصحية وحالتي البائسة التي حرمتني من أن أعيش طفولة عادية، حتى إنني كنت أبحث بنفسي في سن مبكرة عن الوجهات التي يمكن أن أجد فيها الخلاص من هذه العلة التي أعيش بها، وسمعت عن أن أحد أقارب الوالدة يدرس الطب في شيراز بإيران الشاه، فوجدتني أطلب من خالتي «وضحى»، وكان من أسرة زوجها، أن تجعله يأخذني معه للعلاج، فوافق القريب، وكان عمري حينها ١٣ عامًا، أي قبل أكثر من نصف قرن.

وصلنا إلى شيراز، وتوجهنا إلى مستشفى بيمارستان سعدي لعلاج رئتيّ، لكن من دون فائدة، وانتهزت الفرصة فعملت نظارة في بيمارستان خليلي، كانت الشيء الوحيد النافع الذي عدت به من سفري إلى إيران. انتهت رحلتي إلى شيراز لكن رغبتي في الوصول إلى وجهة أعود منها من دون علتي لم تنته.

كان أخي ناصر الذي يكبرني بنحو خمسة أعوام، يشاركني الهاجس نفسه، علة أخيه الصغير، وينظر إليّ دائمًا نظرة الأب إلى ابنه على الرغم من أن فارق السن بيننا لم يكن كبيرًا، لكن ضعفي وهزالي كانا يشعرانه دائمًا بحاجتي إليه، وبمسؤوليته عني، ولاسيما بعد وفاة والدي حينها، وتسلمه مهام أبوتي رسميًا. قرر أخي ناصر أن يأخذني إلى مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت. كنت مسكونًا بهاجس لا أعرف له مصدرًا أن الأطباء ينبغي أن يقصوا جزءًا من رئتي حتى أستريح، ربما كان مصدر هذا الألم الدائم الذي أشعرني مع الوقت بأنني أريد أن يخلصني أحدهم من هذا الشيء الذي في صدري، وكنت مؤملاً أن أعثر في لبنان على هذا الطبيب الذي يفعلها ويقص الجزء المتألم من رئتي، لكن الأمر اقتصر على جلسات علاج تنفسي بيدي أخصائيتين، وعدت من رحلتي إلى بيروت

أيضًا من دون فائدة، اللهم إلا سيارة مرسيدس قرر أخي ناصر شراءها. هكذا عدت من رحلتيَّ العلاجيتين المبكرتين إلى شيراز وبيروت بالنظارة والسيارة المرسيدس ورئتي المعتلة التي سافرت بها كما هي. وحين ذهبت أشكو بثي وحزني إلى معلم اللغة الإنجليزية البريطاني الذي كان يدرسنا في متوسطة الزلفي، وكنت دائم التردد عليه في منزله، قال لي: «لن يفيدك إلا السفر إلى لندن... الطب هناك». منذ ذلك الحين، قررت السفر إلى لندن للتخلص من اعتلال رئتي، ويمكنني القول إن رحلة سفري إلى لندن للعلاج بدأت منذ كنت في المرحلة المتوسطة، فقد وقر في عقلي أنني ينبغي أن أسافر إلى لندن، وأن السبيل الوحيد إلى ذلك أن أكون من العشرة الأوائل على المملكة في الثانوية العامة؛ ليكون من حقي الابتعاث إلى الخارج، وحينها سيكون خياري الوحيد إنجلترا، ولا بلد أخرى غيرها، هناك حيث المحطة الأخيرة لرحلة السعال هذه. نعم حدث هذا.. أذكر جميع هذه التفاصيل جيدًا، وأذكر ما سافرت من أجله إلى لندن قبل إقلاع طائرتي بست سنوات، أن أتعالج في مستشفيات إنجلترا، وأن أدرس الطب هناك، لأعود بلندن وطبها إلى بلادي، لأعالج أمثالي من الصغار المعتلين الذين قد لا تساعدهم الظروف على السفر خارج البلاد.

بدأت إجراءات السفر على الفور. تحولت إلى ماكينة للتحصيل العلمي. لم يكن هناك سقف لرغبتي الجارفة في التحصيل العلمي والاستفادة من كل شيء، ومن كل أحد، ولم أكن أقبل بغير أعلى المعدلات، فلم أسمح على الإطلاق بأن أفقد درجة واحدة، الدرجة النهائية فقط هي علاجي، الدرجة النهائية فقط هي التي تهدئ من حدة السعال الصديق العدو الذي ينام معي في الفراش، الصديق اللدود، حتى إن معلم رياضيات مصريًّا أعطاني ذات مرة درجة ٢٩ من ٣٠ في أحد الاختبارات، فما كان مني إلا أن بكيت، حتى عدل الدرجة إلى ٣٠ من ٣٠، بعدما أثبتُّ له أن هذا من حقي، وتبين له ذلك.

لم أكن أضيع فرصة للاستفادة والتحصيل العلمي. كنت أستفيد من محاسب شركة والدي، ومن المعلمين، وكنت أطارد الجميع لتعلم كل ما يمكن تعلمه، لكن يبقى أكثر من تعلمت منه، وأسهم في بنائي علميًا وتفتح وعيي على يديه في تلك المرحلة، معلمي «هارولد والتن».. وهو متقاعد إنجليزي جاء مُستقطباً إلى الزلفي وعمره فوق الستين، ليعمل معلمًا للغة الإنجليزية، في المدرستين المتوسطة والثانوية، وبرفقته زوجته، عجوز تدعى «نانسي والتن». كانا يسكنان في بيت طيني، وكنت دائم التردد عليهما لأنْهَل من إنجليزية الرجل

الذي ساقته الأقدار إليّ لأحقق حلم السفر إلى بريطانيا، حتى أني يوم وصلت بالفعل إلى لندن، وخرجت من مطار هيثرو، تحدثت إلى سائق سيارة الليموزين باللغة الإنجليزية بطلاقة كأنني مواطن إنجليزي.

* * *

وأذكر من الطرائف ذات الصلة بتفوقي في اللغة الإنجليزية، وكان معلومًا للجميع أنه لا أحد يتجاوزني فيها، وأنني الأقوى من بين جميع الطلاب على الإطلاق، أن أحد الطلاب، وكان متواضع المستوى إلى حد بعيد، طلب إليّ أن أساعده على اجتياز أحد الاختبارات، وكنت رحيمًا معه؛ ليقيني بأنه من دون مساعدتي سيرسب. كان الطالب يجلس على مقربة مني، وأفسحت له المجال لينقل من إجاباتي ما يعينه على اجتياز الاختبار. انتهى الاختبار، وفي اليوم الثاني وجدت المعلم هارولد والتن يصيح باسمي صارخًا، فارتجفت كثيرًا للهجة غير المعتادة منه، وهرولت إليه، فإذ به يقول لي، هناك ورقتان باسمك، كيف هذا؟ فأدركت حينها أن زميلي لم يكن متواضع المستوى التحصيلي وحسب، بل ومتواضع الفهم إلى حد العدمية (أقولها مازحاً)، فقد نقل كل شيء من ورقتي إلى ورقته، حتى اسمي نقله. تظاهرت بعدم الفهم والاستغراب أمام المعلم هارولد، وساعدته على

تمييز ورقتـي، ولم تكن في حاجة إلى طويل جهد لتمييزها، وحمدت الله على مرور الموقف بسلام.

من طرائف تلك المرحلة أيضًا يوم ناداني معلم مادة التوحيد، لعلمه بعلاقتي الوثيقة بالمعلم هارولد، وقدم لي علبة ثقاب (أعواد كبريت)، وطلب مني أن أشعلها وأنا جالس مع المعلم هارولد والتون، وأكويه بها، وأقول له «هذه النار إذا لم تسلم». ولم أكن لأفعل شيئًا كهذا بالطبع، ففوق أنه معلمي وصديقي، كنت أدرك تمامًا أن الإقدام على فعل كهذا مع أحدهم، كفيل بإخراجه من الملة إن كان مسلمًا. كانت أيام ظلام، وكان هذا النوع من الأفكار متداولاً، لكن سفري أنا وجيلي والأجيال التي سبقتنا والتي تلتنا، وتعايشنا مع الآخَر في مدن العلم والنور حول العالم، كان كفيلاً بانقراض هذا النوع من الدعاة إلى الله بأعواد الثقاب، وليس بالحكمة والموعظة الحسنة.

* * *

واصلت نجاحي في المرحلتين المتوسطة والثانوية من دون كلل أو ملل، ومن دون أن يغيب هدفي عن عيني ولو للحظة واحدة، كان التفوق من أجل الابتعاث إلى إنجلترا، وقد كان، بالفعل تفوقت في الثانوية العامة، وحققت الترتيب

التاسع على مستوى مدارس المملكة، وحين تقدمت لوزارة التعليم بطلب الابتعاث، خيروني بين التعليم في الرياض، أو باكستان، أو أمريكا، أو بيروت، لكنني انتظرت إلى أن سمعت اسم إنجلترا، لأختارها، وقد كان.

ما إن حطت عجلات طائرتي على مدرج مطار هيثرو، وخرجت من باب مرافق المطار إلى الشوارع، حتى دبت روح جديدة في صدري، أحسست وكأنني على وشك التنفس بقوة من دون سعال، وأنني على مقربة من المستشفى الذي سأتخلص فيه من الجزء المعتل من رئتي إلى الأبد، ثم بعدها أواصل رحلتي في دراسة الطب، حتى أعود إلى الصغار المعتلين أمثالي في طفولتي؛ وأخلصهم من علل أجسادهم، وأساعدهم على الاستمتاع بطفولتهم، فلا يُحرموا من الاستمتاع بها مثلما حرمت أنا من الاستمتاع بطفولتي.

كانت ماكينة التحصيل التي أدرتها منذ كنت في المتوسطة تعمل بالسرعة نفسها ومن دون استراحة، نعم حققت حلم الوصول إلى إنجلترا، لكن حلم العودة بلقب «دكتور»، لم يتحقق، وكنت أدرك أن هذا يتطلب مني أن أرفع من سرعة ماكينة التحصيل التي أحملها داخلي، لا أن أهدئ من سرعتها، حتى ولو من أجل التردد على المستشفى لفحص

رئتي وتشخيص حالتي وتقرير الإجراء الطبي المناسب، فقد انتظرت موعد إجازة دراسية طويلة نوعًا ما، تتخلل نصف العام الدراسي الأول، وتوجهت إلى ملحقنا الثقافي في لندن، وأخبرته عن مشكلة تمدد الشعب الهوائية المزمنة التي أعيش بها، وبرغبتي في التداوي، فحولني بدوره على الدكتور محمد الصايغ ملحقنا الصحي السعودي في لندن آنذاك، فأرسلني إلى استشاري إنجليزي عجوز يدعى (إيان هل، Mr. Ian Hill)، فحصني، ومن الطرائف حينها أنه سألَني: «هل لديك صديقة؟» فقلت: «وما دخلها بالسعال؟»، قال: «فقط أريد معرفة تاريخك الصحي، وسيكون هذا سرًا». قالها بأبوة ملاطفًا. ولم يكن عندي أسرار أريده أن يحفظها ولم أعتد الأسرار في حياتي، لكنني بدوري لاطفته بالقول: «لا والله ما وجدت صديقة حتى الآن». تبسم الرجل، وبعد الانتهاء من فحص رئتي، أخبرني بأنني في حاجة إلى استئصال ثلثي الرئة اليسرى التي بها المشكلة، وأكد لي أن السعال والبلغم أو الإفرازات المخاطية لن تعاودني بعدها، وأنني سأتحسن كثيراً، وأن الرئة ستعاود النمو حتى تملأ مكانها في القفص الصدري. شرح الرجل كثيرًا الإجراء، وطمأنني كثيرًا، لكنني وددت لو أقول له إنني غير قلق، وإنني منذ كنت طفلاً وأنا مقتنع بأن علاجي

الوحيد بتر هذا الجزء المتألم داخلي. كان إلهامًا إلهيًا لطفل معتل، وقد أثبتت لي الأيام بالفعل صدق حدس طفولتي غير المستند إلى أي دليل أو معلومة طبية، فقط حدس وحسب. وفي عيادة الطبيب الإنجليزي العجوز المتخصص فقط في الرئتين، صدق حدسي، وكنت جاهزًا تمامًا للجراحة التي قد تبدو لمن يقرأ عنها الآن جراحة صعبة، أو أنني كنت أشعر برهبة آنذاك، ومن يفكر هكذا معذور بكل تأكيد؛ لأنه لم يعان معاناتي منذ طفولتي وأنا طفل شبه ميت، فقط تدب فيه الروح، محروم من كل شيء، حتى الضحك ملء رئتي كالآخرين.

حجز لي الطبيب في لندن كلينك، قرب شارع هارلي ستريت المعروف، منطقة الأطباء والمستشفيات. دخلت المستشفى من دون أن أخبر أحدًا من أهلي، كنت مشفقًا من الفزع الذي يمكن أن تعيشه والدتي، حين تعلم أنهم سيستأصلون ثلثي رئة صغيرها في الغربة، ولم أفقد يومًا دراسيًا واحدًا، فالجراحة أجريت في الإجازة الدراسية، بل وكان لدي مزيد من الوقت بعد نجاح الجراحة وخروجي حيًا من غرفة العمليات للعودة إلى المملكة لزيارة الأهل. ولم يكن تكتمي على الجراحة لأنني بطل أو شاب بلا قلب، فلم يعذبني سوى حنو قلبي في هذا العالم، فقط الخوف على

أمي جعلني أختار هذا الخيار القاسي على النفس، أن أكون وحيدًا وأنا أخضع لمثل هذه الجراحة في مثل تلك السن، فقط كان يتردد علي زميل دراستي صالح الغريري، وشخص حنون من الزلفي يدعى عبدالله بن عبدالعزيز البدر، كان يحضر رسالة دكتوراه في الصيدلة، وعرف عني، وصار يزورني كل يوم أو يومين، ولعلها الآن فرصة مواتية لتوثيق هذا الصنيع الذي لا أنساه لهذا السعودي الزلفاوي الشهم الذي لم يكن يعرفني معرفة شخصية، ولم تجمعني به سوى الشدة التي يُعرف بها الرِّجال، وقد كان نعم الرجل.

بعد خروجي من المستشفى كان شوقي للزلفي جارفًا، كنت مشتاقًا لأمي، ولعظام أبي الذي توفي وأنا في الصف الأول المتوسط، ولإخوتي، وأخواتي، ولأخوالي وخالاتي، كنت في شوق لاستنشاق هواء الزلفي للمرة الأولى بعمق برئتي الجديدة، للضحك بين الأهل من دون سعال، لفرحة عينَي أمي بصغيرها الذي تعافى أخيرًا. لكن هذه الفرحة على وجه التحديد لم تتحقق من بين جميع الأشياء التي عدت من أجلها. بالفعل عدت، لكن عودتي تحولت إلى مأتم أقامته أمي وخالاتي وأخواتي.. جلسن يبكين علي، حتى كدن يَنُحْنَ كأنهن يجلسن مع جثماني وليس معي، بعدما أخبرتهن بشأن الجراحة، حتى أخذت أصيح فيهن:

«أنا بخير.. والله بخير». كان مشهدًا مضحكًا، لكنه دافئ أيضًا، فما تحاشيته من قلق أمي وأخواتي وخالاتي وحزنهن، أقمنه بأثر رجعي بعد عودتي.

لكن رحلة العودة في حد ذاتها كانت مخاطرة كبيرة، فقد حذرني الطبيب من ركوب الطائرة، وكان خياري الوحيد حتى أعود إلى المملكة، التوجه إلى الأراضي التركية، ثم الأراضي السورية، في رحلة برية ستمتد لأيام. لكنني أمام شوقي الجارف للأهل بعد عودتي للحياة من غرفة العمليات وسرير المرض في الغربة، قررت خوض الرحلة الطويلة، وبالفعل أخذت السفينة من لندن إلى كاليه في فرنسا، ثم من كاليه ركبت القطار إلى باريس، ومن باريس ركبت قطارًا آخر إلى فرانكفورت في ألمانيا، لكن الشوق إلى الزلفي غلبني في ألمانيا، بعد يومين من التفكير في أحد الفنادق، عدلت عن فكرة السفر إلى تركيا، وتوجهت إلى إحدى شركات الطيران وأخذت تذكرة طائرة إلى الرياض. كانت مخاطرة كبيرة برئتي التي لم تلتئم بعد، لكنني لم أتحمل الصبر أكثر من ذلك على تقبيل يد الوالدة ورأسها، ولاسيما أنها كانت غير راغبة في سفري من الأساس، وكانت متألمة طوال فترة غيابي عنها، فكان شعوري كبير باللوم والتقصير في حقها.

بالفعل دخلت الطائرة، وما إن جلست على مقعدي حتى استدعيت المضيفة لأسألها عن مكان قناع الأكسيجين في حال الحاجة المحتملة بقوة، فأرشدتني إليه، ومع ارتفاع عجلات الطائرة عن أرض المدرج، نطقت الشهادتين تحسبًا لمفارقتي المحتملة للحياة، لكني أفلتُّ هذه المرة أيضًا، ووصلت إلى مأتمي الذي انعقد فور وصولي إلى بيت العائلة، ورؤيتهم الجرح العملاق الذي خَلَّفه الفريق الجراحي في ظهري، بعدما غادروا قفصي الصدري مصطحبين معهم الجزء المتألم من رئتي اليسرى.

* * *

حقائق كثيرة وصلت إليها في هذا العالم، في طريق رحلتي الطويلة التي استغرقت نحو ستة أعوام إلى لندن، أهمها على الإطلاق أنه ليس على الإنسان أن يستصعب الطريق، وألا يسمح بالشك أو الوهن أو التراخي بالتسلل إلى نفسه في طريق رحلته؛ لأن هذا كفيل بإنهائها على الفور، فلم يساورني شك وأنا أعمل كالماكينة على التحصيل العلمي طوال أعوام المتوسطة والثانوية بأنني سأصل إلى هدفي. نعم كان واردًا ألا أصل، لكن التفكير في هذا وأنا في الطريق، كان كفيلاً بأن يجعل عدم وصولي أكيدًا، لهذا على المرء أن يتقدم نحو أهدافه بقوة مهما كانت بعيدة، وألا

يستصعبها أو يستكثر زمن الرحلة، فلا شيء يتحقق في يوم وليلة، والحقيقة أن الإنسان قليل الهمة لن يصل إلى شيء في القريب أو البعيد.

* * *

تعلمت من رحلتي العلاجية الطويلة أيضًا، فضيلة الصبر على بلوغ الغايات، وهي فضيلة لازمتني بقية حياتي، فلم أعد أتضجر من شيء، أو أضيق بشيء؛ أو أتعجل شيئًا. أصبح راسخًا لدي أن الحياة مجموعة رحلات على الإنسان أن يقوم بها، وأن كل رحلة ستستغرق زمنها المحدد، وأن الإنسان لا يملك خيار التخلف عن رحلات الحياة؛ لأن التخلف عن الرحلة يعني ببساطة أنك لن تصل إلى أي وجهة، وسيغادرك الجميع وأنت واقف في مكانك بلا إنجاز، ولا هدف.

* * *

تعلمت من رحلتي العلاجية الطويلة أن أثق بأن جميع الحلول داخلي، وأنه ليس علي أن أطرق الأبواب، بقدر ما علي أن أبدأ مباشرة في الانطلاق نحو غاياتي من دون اللجوء إلى دعم من أحد، فقرار التفوق كان قرارًا داخليًا لدي، وإرادة التفوق كانت إرادة شخصية مني، والدأب

في التحصيل والتفوق على مدار ست سنوات كان بجهد خالص مني، إلى أن أمليت إرادتي وتحقق لي حلم الابتعاث الذي لم يكن ليتحقق لأي طالب من خارج العشرة الأوائل في الثانوية العامة، إلا أن يبتعث أحدهم ابنه على نفقته الخاصة، وهذا يتنافى مع فكرة الإرادة، ويدخل تحت مبحث آخر هو الإدارة الوالدية لشؤون الأبناء.

* * *

تعلمت من رحلتي العلاجية الطويلة أن أخطط لكل شيء، فأحدد الأهداف، ثم أضع الخطط اللازمة لتحقيقها، وأنخرط تمامًا في تنفيذ هذه الخطط، وقد كان نجاحي في هذا في تلك السن المبكرة أقرب ما يكون إلى الكبسولات التي تدفع الأقمار الاصطناعية إلى خارج المجال الجوي للأرض؛ لتتمكن من السباحة في الفضاء، وكان وصولي إلى لندن ومغادرة المجال الجوي للمملكة العربية السعودية، إلى المجال الجوي للمملكة المتحدة، يعني بالنسبة إلي أنني أصبحت أخيرًا أسبح في الفضاء، وكانت لدي الثقة الكافية بعد ست سنوات من الاعتماد على الذات، بقدرتي على تحقيق أي هدف، بعدما أصبحت أكبر سنًا، وأوسع خبرة، وأكثر ثقة.

* * *

تعلمت من رحلة علاجي الطويلة أن حكمة الله سبحانه وتعالى، مهما تحدثنا عنها، تبقى فوق ما يخطر لبشر على بال، فبعد شفائي التام من العلل التي ذهبت بها إلى إنجلترا، اكتشفت أن علتي التي ابتليت بها، كانت سببًا لعدولي عن الالتهاء باللعب مع الأقران، ووضعي أمام خيار وحيد أحقق فيه ذاتي هو التحصيل العلمي، الشيء الوحيد الذي كنت أقدر عليه، فنشأت على عادة التعلم والقراءة والشغف بالتفوق، إنجازي الوحيد في تلك السن التي كان الأقران يتبارون فيها بإنجازات أخرى كالركض والمصارعة واللعب، وربما اصطياد ما تيسر من الفتيات لأوقات العبث، وهي أوقات لم يكن لها مكان في حياتي أبدًا ولله الحمد، حتى بعد تعافيّ وحياتي في إنجلترا. أيضًا تسببت علتي في هذه الإرادة الحديدية التي دفعتني إلى التفوق والذهاب بعيدًا في مسيرتي العلمية. والحمد لله، شفيت من علتي، ثم التفتّ حولي فوجدتني على مضمار نجاح كبير، أحتل فيه ترتيبًا متقدمًا، وبالفعل لم أتوان في مواصلة الركض، لكن ليس من أجل علتي هذه المرة، وإنما من أجل علل الآخرين التي قطعت على نفسي عهدًا منذ الطفولة بأن أتصدى لعلاجها، وهذه فائدة أخرى كبيرة وتسخير لي من الله سبحانه وتعالى،

من أجل مساعدة الآخرين، فمن المعاناة تولد الرحمة، فلولا ما مررت به وعشته من وهن وآلام، لما شعرت بآلام الآخرين، مهما سمعت عنها، فأن تسمع عن المعاناة شأن، وأن تعيشها شأن آخر.

* * *

تعلمت من رحلة علاجي الطويلة، أن التعليم الجيد ذراع هيدروليكية طويلة يمكن أن تبلغ بها كل غاية في هذا العالم، وطائرة عملاقة قوية، يمكنها أن تحملك إلى ما شئت من وجهات خارج الحدود، وبلا حدود، فالتعليم الجيد كان طريقي لنطق الإنجليزية كالإنجليز في شوارع لندن قبل أن تطأ قدماي أراضي المملكة المتحدة، والتعليم كان سبيلي للتداوي في واحد من أهم مستشفيات لندن، وكان سبيلي للتواصل مع العالم الخارجي، والاحتكاك بالشعوب، حتى أتعلم السبل المثلى لترغيب الناس في ديني وقومي، وليس منها بالتأكيد الكي بأعواد الثقاب. هذا الارتباط الوجودي بالتعليم الذي بدأ مبكرًا في حياتي، أصبح عادة وأسلوب حياة، حتى بعدما حصلت على درجة الدكتوراه، بل وحتى بعد حصولي على درجة الأستاذية، أصبح التعليم في حد ذاته غاية ومتعة، أتعلم من الجميع، كبارًا وصغارًا، عاقلين وغير عاقلين، حتى الحيوانات أتأملها وأتعلم من سلوكها،

ومن الحيوانات التي تعلمت منها العنز، فأسلوبها في الدخول إلى الأماكن كان ملهمًا بالنسبة إلي، حين تطل برأسها أولا، ثم تتقدم بقدم، ثم تندفع إلى داخل المكان مع أول فرصة مواتية، علمني هذا الأسلوب التدرج في بلوغ الغايات، واستكشاف أجواء بيئات العمل قبل دخولها، ومعرفة الأشخاص جيدًا قبل الانخرط في علاقة معهم.

* * *

تعلمت من رحلة علاجي الطويلة أن أعرف قيمة نعمة العافية التي زحفت من أجل الحصول عليها ستة أعوام، في وقت يهدر فيه أقراني عافيتهم على اللهو، وربما على المحرمات التي لم أعرف طريقي إليها يومًا، ولم أسمح لها بأن تعرف طريقها إلي، فلم أقم علاقة محرمة في حياتي، ولم يدخل جوفي حرام، بل لم أجلس في مجلس به طعام أو شراب حرام، وأذكر من ذلك أن أحد أساتذتي في القسم الذي كنت أحضر فيه رسالة الدكتوراه في الجامعة، دعاني إلى حفل للقسم يحضره الأساتذة والزملاء، فاعتذرت له بأنه لا يمكنني الحضور لأن هذه الاحتفالات تقدم فيها المشروبات الكحولية، ولا يمكنني البقاء في حفل تقدم فيه الخمر، فما كان منه إلا أن طلب منهم ألا يحضروا أي خمور إلى الحفل؛ حرصًا على حضوري، وعلى مشاعري. هكذا حمدت الله على نعمة

العافية التي منّ الله علي بها، وانكفأت على دراستي وعملي في إنجلترا، لا لهو، ولا مراقص، ولا صديقات، ولا خمر، ولا تدخين.. كان نشاطي الرئيس صلاتي التي كنت أحافظ عليها في مركز إسلامي، كان وجهتي الرئيسة كلما سمح وقتي وظروفي.

* * *

تعلمت من رحلة علاجي الطويلة أن أتأمل كل موقف، وكل حدث يمر عليَّ في حياتي، وأستخلص منه العظة والعبرة والرسالة الإلهية، بعدما تحولت محنتي إلى منحة، وأصبح عسري يسرًا.

عِقــال أبــي

عِقـال أبـــي

فضلاً عن جينات أبي التي انتقلت إلي كاملة غير منقوصة، ثَم مشهد رئيس في مشهد رحلته الطويلة المزدحمة بالمشاهد، لا أنساه.. مشهد فارِق أدين له بكل شيء وصلت إليه، وكل شيء تحقق لي في رحَلة حياتي الصعبة التي بدأت مصاعبها بولادتي ضعيفًا هزيلاً برئة متضررة بقوة.

ظل يلاحقني مشهد أبي -رحمه الله- وهو ينزع عقاله وشماغه نزعة واحدة ويهوي بهما بقوة على الأرض، بعد نجاح إطلاق محطة الكهرباء التي أنفق فيها ما جمعه من أموال، وتحمل من أجل إطلاقها سخافات السخفاء، ومعايرة الجهلاء، ونظرات الشماتة في عيون الحاسدين والكارهين والغلظاء.

كان إعلان أبي انتصاره على الإحباط والكراهية والجهل بانتزاع عقاله وشماغه وضرب الأرض بهما، مشهد النهاية لرحلة من المتاعب والتحديات، وتجسيدًا للمعاناة التي كابدها وتجشم عناءها حتى يصل إلى حلمه الكبير، أول شركة كهرباء، النور الذي أضاءه أبي ثم لم ينطفئ منذ ذلك اليوم.

تعلمت من هذا الدرس الكبير في حياة والدي أمرين؛ أولهما أن النجاح لا يأتي صدفة، بل بعد رحلة تعب وكد وعطاء وصبر، وأن النجاح الكبير لا يأتي إلا بعد تعب مضاعف، وكد مضاعف، وعطاء مضاعف، وصبر مضاعف. الأمر الآخر الذي تعلمته من درس محطة الكهرباء، أن النجاح ليس خيارًا حتى يفرط فيه أحدنا، وأن على الإنسان أن يمتلك من الجلد والمثابرة ما يصل به إلى أهدافه، مهما كانت الخسائر أو المتاعب. تعلمنا نحن أبناء حمود الطريقي من حياة والدنا أنه لا يليق بالفارس أن ينسحب من معركته، وأنه خير له ألا يعود من الميدان، من أن يعود منسحبًا يجر ذيل هزيمته.

ظللت كلما استصعبت أمرًا، ينشط في ركن عميق في ذاكرتي ذلك المشهد، ويخرج لي أبي من أعماقي ليلقي بعقاله في الأرض بما أوتي من قوة، معلنًا انتصاره على المستحيل

الذي ركض وراءه أعوامًا من عمره، حتى أصبح حقيقة ساطعة كسطوع نور الكهرباء للمرة الأولى في ليل الزلفي؛ وحتى يذكرني دائمًا بأنني ابن الرجل الذي لا يهزم، وأن انتصاري على تحديات الحياة ليس خيارًا، بل فرض علي بأمر الوالد، رحمه الله.

ولقد كانت رحلة الأعوام العشرة في إنجلترا رحلة المصاعب والتحديات، كل مرحلة منها تعدل إطلاق شركة كهرباء، وبعد كل مرحلة يحضرني وجه أبي فرحًا كفرحته يوم نجح إطلاق المحطة، يقدم لي عقاله وشماغه لأهوي بهما على الأرض كما فعل احتفالاً بانتصاره الكبير في ميدان التنمية، فتعتريني رغبة في تسلمهما منه، رحمه الله، وتقبيلهما، وتقبيل رأسه الشريفة.

بدأت رحلة التحديات مبكرًا، بل مبكرًا جدًا، بعد وصولي إلى «برايتون» Brighton لدراسة اللغة الإنجليزية في مركز تعليم اللغة الإنجليزية The English Language Centre. كان قوام يومنا الدراسي نحوٍ أربع إلى خمس ساعات، فوجدت لدي وقت فراغ طويلاً متبقيًا من اليوم، وكنت أرغب من البداية في عدم تفويت أي فرصة للوصول إلى حلم الطب الذي عاهدت نفسي عليه منذ كنت طفلاً صغيرًا مريضًا، نذر نفسه لمعالجة الآخرين من

أجل تخفيف آلامهم التي وُلدوا بها، فتوجهت بالقطار إلى الملحق الثقافي في لندن آنذاك، الأستاذ عبدالعزيز التركي؛ لأطلب إليه أن يلحقني بجهة أخرى أستزيد فيها من دراسة اللغة الإنجليزية في الفترة المسائية. كنت أريد أن أتقن الإنجليزية كأنني أحد متحدثيها الأصليين، مع العلم بأنني سافرت إلى إنجلترا بإنجليزية قوية تعلمتها على مدار أعوام طويلة على يدي معلم بريطاني قدير، لكنني كنت دائمًا أطمح إلى المزيد، فلا أكتفي من التعلم أبدًا، كنت أدرك دائمًا أن الإتقان طريق مضمونة إلى الأحلام، وكان حلمي كبيرًا، وعليّ أن أتقن كل شيء حتى لا أدع فرصة للفشل. ضحك مني الأستاذ عبدالعزيز التركي كثيرًا، وتعجب من أمري، مع إبداء إعجابه بهذا الطالب حديث التخرج في الثانوية العامة الذي يبحث عن مهام عمل إضافية بدلًا من الاستمتاع ببقية أوقاته خارج الدراسة مثل أقرانه، ولبى طلبي على الفور بإرسالي إلى «ديفيز سكول» The Davis School لدراسة اللغة الإنجليزية في الفترة المسائية.

بعد ستة أشهر من الدراسة المكثفة والمضاعفة للغة الإنجليزية، انتقلنا أنا ودفعتي إلى بلدة كرولي Crawley في مقاطعة ساسكس Sussex من أجل دراسة المصطلحات

الطبية؛ تمهيدًا لالتحاقنا بدراسة الطب التي أبديت للملحقية رغبتي في دراستها دون غيرها من العلوم منذ مجيئي.

هكذا، وبعد اجتيازي امتحانات شهادتَي «أكسفورد» Oxford و«كمبردج» Cambridge في اللغة الإنجليزية، بعد رحلة كفاح عام يعدل عامين مما يَعُدّ غيري من الطلاب، أصبحت جاهزًا تمامًا للالتحاق بإحدى الجامعات لدراسة الطب. لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي سفينتي، بعد تلقينا من الجهات المسؤولة عن التعليم في إنجلترا ما يفيد بأن شهادة الثانوية التي أتينا بها من السعودية، لا تصلح للالتحاق بالجامعة عندهم، وأنها تعدل الشهادة المتوسطة في إنجلترا، وأن علينا إن كنا نرغب في مواصلة التعليم في المملكة المتحدة أن ندرس مواد الثانوية العامة مرة أخرى لكن على المنهج البريطاني، ما يعني تأخر انطلاقتي نحو هدفي عامين إضافيين، ولم يكن أمامي خيار الرفض، فقد كان إصراري كبيرًا على الالتحاق بدراسة الطب.

استحضرت صورة أبي صاحب الإرادة الحديدية، وشددت المئزر من جديد، وبدأت دراسة الثانوية العامة البريطانية لمدة عامين، وتسمى «شهادة المستوى المتقدم في التعليم»، في تخصصات الفيزياء والكيمياء والأحياء، وهي التخصصات المؤهِّلة لإكمال دراستي الجامعية في تخصص

الطــب، وبالفعل حصلت علــى قبول لدراســة الثانوية في كلية «ساوث بــورت للتكنولوجيا» Southport Technical College، في منطقة ساوثبــورت Southport شمال إنجلترا قريبًا من ليفربول Liverpool، درســت فيها المرحلة الثانوية لمــدة عامين حتى اجتزتهــا عام ١٩٧٧م، بعدها بــدأ التقديم على الجامعات، لكنّ الرياح جاءت بما لا تشتهي سفينتي من جديد.

تسبب عدم تفوقي في بعض المواد؛ نظرًا إلى التحول الكامل في دراستي من العربية إلى الإنجليزية، في عدم قبولي لدراسة الطب. كانت الأولوية عندهم للطلبة البريطانيين، لذا كانوا يشترطون الحصول على معدل «ممتاز» للطالب غير البريطاني، لذا فعندما قدمت على ما يسمى عندهم بالقبول الموحد، وكانوا يسبقوننا إليه بأربعين عامًا، رتبت الطب في مقدمة رغباتي، ثم الخيار الثاني الهندسة، والثالث الكيمياء، وكانت صدمتي الكبرى حين جاءني القبول في تخصص الهندسة الذي لم يكن في الحسبان، فقط اخترته لملء الفراغ.

توجهت إلى الملحقية السعودية في لندن على أمل أن يجدوا لي مخرجًا؛ حتى أتمكن من دراسة الطب، فخيروني بين دراسة الطب في باكستان، أو بيروت. كانت بارقة أمل

كبيرة أمامي، لكنها اصطدمت بعقال أبي، العقال الصلب العنيد الذي لا يقبل الانسحاب من الميدان تحت أي ذريعة من دون تحقيق انتصار كامل. كانت عقيدة الانتصار على الظروف التي غرسها فينا أبي السبب الأكبر لما حققته، والسبب الأكبر لما عانيته أيضًا، إذ لا انتصارات بالمجان، فضلاً عن أن خيار الانسحاب كان غير وارد، فكانت العودة من بريطانيا من دون حصولي على الدكتوراه التي ذهبت للحصول عليها بالنسبة إليّ هزيمة منكرة، ليس أمام أحد، فأهلي كانوا يقدرون اجتهادي وسعيدون به، لكن أمامي أنا ابن حمود الطريقي الذي يعلم جيدًا، ماذا يعني أن أكون ابنًا يستحق أن يحمل اسمه.

شددت المئزر من جديد، وأخذت نفسًا عميقًا للمرحلة المقبلة بعد قبولي الالتحاق بدراسة الهندسة، على أن أجد سبيلاً في الأخير إلى الإنسان.. الإنسان الذي سافرت من أجل تخفيف آلامه.. كنت أحدث نفسي بأنه لا شك بأن علم الهندسة أيضًا لديه ما يقدمه لصحة الإنسان، وأن دراسة الهندسة كذلك يمكن أن تكون سبيلاً لرفع المعاناة عن المرضى والمتعبين. لم يكن واضحاً لي حينها كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لكنّ يقينًا ما كان يسكنني بأنني سأصل إلى ما أصبو إليه في نهاية الدرب.

جـاءني قبـول من كليـة الهندسة في جامعـة لانكستر Lancaster University في شمـال إنجلـترا، وبالفعـل التحقت بهـا، وتخرجت فيهـا بعد حصـولي على درجة بكالوريوس الهندسة مع مرتبة الشرف. لكنّ حصولي على بكالوريوس الهندسة مع مرتبة الشرف من جامعة لانسكتر لم يمـر من دون ثمـن، وثمن باهظ؛ فحرصـي الزائد على الحصول على مرتبة رفيعة، جعلني دائمًا في ضغط نفسي، يضاعف من ضغوط الدراسة البالغة الصعوبة أصلاً، هذه الضغوط النفسيـة المضاعفة، تسببت في انفجار بالصدفية لدي وأنـا في السنة الثانية من الجامعة، عانيت منه سنوات طويلـة، حتى قرب عشر سنوات مضت، وعلى الرغم من أننـي الآن بفضـل الله تعافيت منه تمامًـا، لكنه ظل يُذكّرني بالأعوام الصعبة التي قضيتها في تلك الجامعة، وبالضغوط النفسية الشاقـة التي وضعت نفسي فيهـا، إلى أن تمكنت أخيرًا مـن انتزاع عقالي وشماغي وضـرب الأرض بهما، إعلانًا لانتصاري في ميدان الهندسة، وعودتي إلى التفوق الذي حرمني تأخـري عنه في الثانوية مـن دراسة الطب، لكنه عاد من جديد بعدما تصالحت مع الدراسة وفق المناهج البريطانيـة، فلم تعد عائقًا في طريـق تفوقي الذي اعتدت عليه منـذ الطفولة، وكان دائمًا وثيقة مـروري إلى أهدافي في الحياة.

* * *

حصلت أخيرًا على بكالوريوس الهندسة الميكانيكية من جامعة لانكستر عام ١٩٨٠م، ثم عاد هاجس الطب، ودرجة الدكتوراه، يلحـان علي من جديد، فلم أشعر بالاكتفاء من العلم رغم المنجز الكبير الذي يمثله تخرجي في الهندسة من جامعـة لانكستر، وبمرتبة الشـرف، فلست من النوع الذي ينسى أهدافـه، أو يتخلى عن أحلامه في الحيـاة، تمامًا مثل الرجل الذي أحمل نسخة طبق الأصل من جيناته.

تحـت إلحـاح هاجـس الطـب والدكتـوراه، وجدتنـي أطـوف على الجامعات لأرى ما عندهـم من برامج الماجستير والدكتوراه التي تحقق حلمي القديم الذي أتيت به إلى إنجلترا، وكانت كلهـا في الهندسة، إلى أن عثرت في جامعة سالفورد University of Salford في مانشسـتر Manchester، على برنامـج ماجستير ودكتـوراه معًا، يطلق عليـه هندسة تقويم الأعضاء، مجال بحثـه في تطبيقات الهندسة الميكانيكية على الأجهزة التـي تساعد الإنسـان علـى أداء وظائفه، ويخدم المعاقين ومرضى المفاصل الاصطناعية، ويقوم على تطبيقات هندسيـة تؤهل المرضى والمعاقين والمسنين، لكنه ينطوي على مغامرة وتحدٍّ نوعي، فهو ماجستير قابل للتحويل إلى دكتوراه، أي أنه ليس شرطًا ملزمًا للجامعة أن أحصل على الدكتوراه،

وأن الموافقة على تقدمي بعد الماجستير، إلى درجة الدكتوراه، مشروطة بما أبذله من جهد، والأهم من ذلك، بما أحققه من نتائج ستحدد إن كنت بعدها سأنتقل إلى مرحلة الدكتوراه أم لا.. كان تحديًا كبيرًا وغير مضمون، لكنه كان بالنسبة إليّ طوق نجاة، ولو ضعيفًا، للوصول إلى بر أحلامي، ففي مقابل التحدي الكبير الذي أواجهه، كان النجاح في سلوك هذه الطريق، واجتياز هذا التحدي، يعني تحقق الحلمين معًا، حلم الدكتوراه، وحلم تقديم خدمة طبية مهمة جدًا لفئات تعاني معاناة كبيرة، وفي أمس الحاجة إلى يد تمتد إليها، وهذا يعني أنني أصبحت على أعتاب المسافة الأخيرة على المضمار الذي اخترته لنفسي منذ الطفولة، مضمار الإنسان.

لكن الرياح عودتني أن سفينتي لن تجد الظروف دائمًا مهيأة لإبحارها بأمان وسكينة إلى موانئها في الحياة، وأن عليّ دائمًا أن أواجه الرياح العاتية التي تأتي دائمًا بما لا تشتهي سفينتي. مجددًا ظهرت دوامة جديدة، حين ذهبت إلى الملحقية السعودية بقبولي من جامعة سالفورد، وهناك علمت أنه لا أمل لي في الالتحاق بالجامعة للحصول على درجة الدكتوراه؛ لأن بعثتي انتهت بحصولي على البكالوريوس، وتقدمي للدكتوراه يتطلب موافقة جديدة من وزارة التعليم.

كنت قد عزمت على دراسة الدكتوراه، وما كنت لأسمح لشيء بأن يوقف قطار رحلتي، فخلال أيام كنت في الرياض، ومن فرط حماستي لم أذهب للقاء الأهل بالزلفي، إذ كنت متوقد الرغبة في إنهاء هذا الملف المصيري في حياتي. ما إن وصلت إلى الرياض حتى توجهت إلى ديوان وزارة التعليم، وكان وزيرها آنذاك الشيخ حسن آل الشيخ، رحمه الله، وكان مسؤولاً حقيقيًا بما تعنيه كلمة مسؤولية من معان، لكنني فوجئت حين وصلت إلى مكتبه بأنه في مقر الوزارة بالطائف، فما كان مني إلا أن واصلت رحلة تحليقي.. أخذت أول طائرة إلى الطائف، ومن مطار الطائف توجهت إلى مكتب وزير التعليم.. دخلت على مدير مكتبه.. عرفته بنفسي، وشرحت له قصتي ورغبتي في الابتعاث إلى جامعة سالفورد. سألني الرجل: «في أي تخصص؟»، فقلت له: «في تخصص هندسة تقويم الأعضاء وعلاج المعاقين»، فحدث حينها ما لم يخطر لي على بال، إذ فوجئت بالرجل يُخرج يده وكان يضعها تحت سطح المكتب، وبها روماتيزم تسبب له في إعاقة، ويشير إليّ بها ويقول: «هل ستعمل على هاتين؟»، قلت: «نعم»، فقال: «أبشر». أخذ الرجل مني الطلب، وطلب مني الانتظار ريثما يذهب به إلى منزل وزير التعليم وكان الرجل في إجازة مرضية،

وعاد لي بخطاب الموافقة موجهًا إلى الملحقية السعودية في لندن باعتماد تمديد بعثتي للحصول على الدكتوراه في الجامعة التي حددتها.

بعد أن اطمأننت على اعتماد حلم العمر، ذهبت للزلفي لمقابلة الأهل، وقد بقي أمامي استئذان إخوتي في التغيب لأعوام إضافية عنهم، فيما هم يحملون عبء أعمال الأسرة وشركة الكهرباء. لكن أبناء حمود الطريقي كلهم يحملون الجينات نفسها، فحين قابلت أخي عبدالله وكانت إدارة الشركة في يده حينها، وقَبْلها كان عضد والدي في حياته، وخيّرته بين أن أعمل معهم في شركة الكهرباء بشهادة الهندسة الميكانيكية، أو أواصل دراستي العلمية بالحصول على درجة الدكتوراه، وجدته يقول لي: «لا طبعًا لا تعمل الآن.. ولماذا تعمل؟.. نحن فاتنا قطار العلم، أما أنت فالفرصة أمامك لتكمل وتنال درجة علمية. اذهب على بركة الله، وأكمل دراستك حتى تكتفي. كان موقفًا لا أنساه من أخي الكبير، أبهجني، وسر خاطري، لكن سروري لم يكتمل بهذا الاحتضان الكبير، وهذا الدعم، وهذه الوقفة الأخوية المعتادة من إخوتي أبناء حمود الطريقي، فلم تكد تنقضي أربعة أشهر على وصولي إلى إنجلترا للعمل على الدكتوراه، حتى جاءني نبأ وفاته في حادث مروري، رحمه الله.

أطفأ نبأ وفاة أخي عبدالله بهجة فرحي بالالتحاق بالجامعة ووضع قدمي على أول طريق حلم الدكتوراه، فكان علي أن أحتمل غصة جديدة في الحلق، وأتحمل عبئًا جديدًا، وأيضًا أمانة جديدة، بعدما أصبح واجبًا علي أن أهدي هذا الحلم يوم تحققه إلى روح أخي الذي دفعني بقوة إليه.

* * *

كانت رحلة الثانوية والبكالوريوس شأن، ورحلة الدراسات العليا شأن آخر.. نمط جديد مختلف للدراسة، حيث لا مناهج، ولا مدرسين يلقنونك أو حتى يدلونك على شيء، فقط بحر كبير تُلقى فيه، ومشرف أو مشرفان يراقبانك وأنت تسبح، أو وأنت تغرق. كانت هذه طريقة صناعة الباحث في إنجلترا، ولهذا فهم يصنعون باحثين حقيقيين، ويقدمون علماء حقيقيين.

بدأت بحث الماجستير القابل للتحويل إلى دكتوراه مع أستاذين؛ مشرف هندسي، ومشرف طبي؛ نظرًا إلى طبيعة الدراسة التي تجمع بين الهندسة والطب معًا؛ وكان المشرف الطبي الدكتور «جالاسكو»، من جنوب إفريقيا، يعمل أستاذًا في جامعة مانشستر The University of Manchester، ويتعاون مع جامعة سالفورد، ويعمل أيضًا في Hope Hospital. علمت من رئيس القسم آنذاك الدكتور

جاك إدوارد Prof. Jack Edwards أن لديهم مشكلة تخص دراسة مفصل الركبة، فحين يفحصونه لا يعرفون النسبة المئوية لمستوى الخلل في المفصل، ويحتاجون إلى جهاز يشخص عدم وثاقة مفصل الركبة بالأرقام؛ ليقارنوا به الفارق ما بين ما قبل تأهيل الركبة المتضررة، وما بعد تأهيلها بتركيب مفصل صناعي، حتى يقيسوا مدى كفاءة عمل المفصل الصناعي.

كان لدي الشق الهندسي من موضوع البحث المطلوب، أما الشق الطبي، فكان جديدًا عليّ تمامًا، ما يعني أن علي دراسة الطب، إلى جانب دراسة الهندسة، حتى أحصل على رسالة الدكتوراه التي تجمع بين علمين من أصعب العلوم. كنت في حاجة ماسة إلى دراسة علم وظائف الأعضاء Physiology وعلم التشريح Anatomy، كان عليّ أن أبحث عمن يدرّس لي هذين العلمين بمفردي، من دون مساعدة من أحد، وكانت تربطني علاقة طيبة بنورا فيرجيو Norah Virtue سكرتيرة رئيس القسم آنذاك، وكانت سيدة كبيرة في السن، نجحت في كسب مودتها، مثل كثيرين كانت المودة سبيلي إلى كسب ولائهم.. أخبرت السيدة فيرجيو بحاجتي إلى دراسة علمي التشريح ووظائف الأعضاء، نعم كانت جامعة مانشستر تدرس العلوم الطبية مجانًا، وبالفعل أعطتني جامعة سالفورد

خطابًا لهم للالتحاق بمحاضراتهم، وبالفعل سجلت هناك، وهي دراسة غير رسمية، ومن دون امتحانات، فقط أحضر لأتعلم وأستفيد، هكذا حلت مشكلة العملي، وبقيت مشكلة الشق النظري من علمي وظائف الأعضاء والتشريح، فما كان من السيدة فيرجيو، وكانت متحمسة للطالب العربي الدؤوب الذي التحق بقسمهم، إلا أن دلتني على عالمٍ كبير في علمي التشريح ووظائف الأعضاء، لكنه كان رجلاً مصابًا بالتصلب اللويحي، لا يتحرك فيه إلا رأسه، لذا فلا سبيل للنهل من علمه إلا بالذهاب إليه في بيته، وبالفعل أعطتني رقمه.

تواصلت مع البروفيسور جون أستاذ علم وظائف الأعضاء والتشريح هاتفيًا، وبالفعل وافق على أن أتتلمذ على يديه، وبدأت أتردد عليه في منزله لأتعلم، وكان بحرًا في علمه، فاض علي بالكثير، وأدين له بالكثير، ووضع الله لي في قلبه القبول فكان يحبني كثيرًا ويسعد بي، حتى إني استعدت في منزله، ووسط ترحيبه بي ذكريات الطفولة في منزل معلمي الإنجليزي الأول هارولد والتن، وزوجته نانسي، التي قام بدورها في القصة الجديدة زوجة هذا البروفيسور الإنسان، فكانت كلما ترددت على منزلهما تحضر لي الشاي، فيما يقوم هو بمحاضرتي وأنا جالس بين يديه، يفيض علي من علومه، ويبسطها على نحو مدهش.

وحتى أكون قد أنصفت الجميع، سواء من التقيتهم، أو لم ألتقهم، أذكر من أصحاب الفضل علي د. كيث ماركوف Dr. Keith Markolf، عثرت على رسالة دكتوراه له في مكتبة جامعة سالفورد.. طبعتها من أرشيف المكتبة مجانًا على نفقة الجامعة. كانت رسالة قريبة جدًا من موضوعي البحثي، وفتحت لي الآفاق واسعة للإبحار في هذا التخصص.

ظللت أطلع وأعمل وأتقدم في مشروعي البحثي، إلى أن بدأت الخطوات التنفيذية لمشروع الاختراع المطلوب في ورشة بالقسم في كلية الهندسة، حتى صممت بالفعل جهاز قياس عدم وثاقة مفصل الركبة كمِّيًا، بالأرقام، من دون غزو الأنسجة بالإنسان الحي. وبعد انتهاء العمل على الجهاز بدأنا مرحلة التجارب، فكنا نقيس مستوى وثاقة مفصل الركبة، قبل إجراء العلاج الطبيعي أو تركيب مفصل اصطناعي، ثم نقيس وثاقة المفصل بعد التدخل العلاجي، وبالفعل أثبت الجهاز نجاحًا كبيرًا، وحل المشكلة التي كانت تواجه القسم، وحصلت عن هذا الجهاز على براءة اختراع أوروبية.

كان الجهاز المسجل باسمي أوروبيًا في جامعة سالفورد، أول جهاز من نوعه في إنجلترا، وقد وضعوه في مستشفى Hope Hospital وأصبح الجهاز المعتمد لفحص مفصل

الركبة بالمستشفى، وحصلت على درجة الدكتوراه بدرجة امتياز عام ١٩٨٤م مع براءة اختراع أوروبية، وجاء أبي راكضًا من عمق الذاكرة، يعانقني بقوة وأنا أتسلم شهادة الدكتوراه، ويخلع عقاله وشماغه ويطيح بهما على الأرض بقوة، معلنًا انتصاره الثاني على التوالي، بعد معركة محولات الكهرباء التي سجل بها براءة إدخال النور إلى الزلفي، وبراءة إطلاق أول شركة كهرباء، وكما سجل قبلها براءة إدخال أول سيارة إلى الزلفي، وبراءة إنشاء أول محطة تموين سيارات، وبراءة أول مشروع سقيا لمياه الشرب، وبراءة أول التقاء لأضداد الشمال والجنوب في الزلفي عند مكاتب محطة الكهرباء ليصبح خصوم الأمس شركاء اليوم، وبحصولي على براءة الاختراع الأوروبية، أصبح أبي، أيضًا، يمتلك براءة اختراع أوروبية في جهاز قياس وثاقة مفصل الركبة، ولاحقًا، سيصبح أول سعودي يحصل على دكتوراه في الهندسة الطبية من جامعة سالفورد، وأول سعودي يعين رئيسًا لقسم التكنولوجيا الطبية الحيوية في كلية العلوم الطبية التطبيقية بجامعة الملك سعود.. براءات اختراع كثيرة، وأسبقيات جديدة، أضافها أبي إلى قائمة أسبقياته وابتكاراته، فما أنا إلا إحدى براءات اختراع الرويبخ الملهم الكبير، والسَّبّاق الكبير، والرائد التنموي الكبير الذي غرس فينا أنا وإخوتي

هاجس السبق إلى التنمية، وأيضًا، هاجس الإنسان الذي كان شريكًا أصيلاً لأبي حمود في جميع ما أقدم عليه من أعمال، فمع كل نجاح كان حظ الإنسان حاضرًا، بل إن كل نجاح، وكل عمل أقدم عليه، وإن كان تجاريًا، إلا أنه كان من الإنسان وإليه، فسبيل الكسب السهل والسريع وغير المكلف من طريق التجارة، كانت معبدة أمامه بعدما أصبح أكبر تجار الزلفي، لكن روح المسؤولية الاجتماعية التي يعد أحد روادها بجدارة، قبل أن تمتلئ الدنيا حديثًا عن المسؤولية الاجتماعية، كانت تجذبه دائمًا إلى المشروعات التي تغير حياة الناس، وتجعلها أكثر يسرًا، وتؤدي إلى نقلات حضارية واجتماعية، وكان هذا فكرًا جديدًا تمامًا على المجتمع، بل على جميع مجتمعات المملكة آنذاك، وليس أدل على ذلك من أن الزلفي ثالث مدينة تضاء بالكهرباء، بعد الرياض وجدة، بجهود هذا القيادي التنموي الكبير الذي لم يتعلم، لكنه ألهم المتعلمين.

* * *

هكذا عشت بعقال أبي، أستمد منه رباطة جأشي، وجلدي، وصبري على الرياح غير المواتية التي هددت رحلة سفينتي على مدار عشرة أعوام أمضيتها خارج الوطن، لكنني كنت أعيدها في كل مرة إلى وجهتها، حتى عدت

بهـا إلى مرفأ الوطن من جديد، محملة بأمل كبير للمتعبين، وبصغـير الأمس الذي حقق حلمًا عضـ عليه بالنواجذ منذ نعومة أظفاره، حلم مدّ يد العون للمرضى والمتعبين، ورفع المعاناة عن أصحاب المعاناة الذين كنت واحدًا منهم في يوم مـن الأيام، فعلمتني المعاناة أن أشعـر بمن يعانون، وعلمني الضعف أن أكون عونًا للضعفاء والمتعبين، وعلمتني صعوبة رحلتي الطويلة التي قطعتها من أجل العلاج أن أكون رحيمًا بالمرضـى، فأجلب لهم العلاج هنا في أرض الوطن، أجلب لهـم لندن هنـا في الرياض، فلا يحتاجون إلـى تجشم عناء الرحلة ليتخلصوا من آلامهـم، ولا يتكبدون المال الذي قد يقدرون عليه وقد لا يقـدرون، من أجل حياة أقل معاناة، أو مـن أجل معاناة أقل، لا تحرمهم من بهجة الحياة التي حُرِمت منها في طفولتي.

الـمعـوِّقـــون

الـمعـوِّقــون

ليست الإعاقة فقط ما يصيب الإنسان من صعوبات تعطل نشاطه البشري، وليس الإنسان وحده الذي يصاب بالإعاقة، يحدث أن المؤسسات أيضًا تصاب بالإعاقة، فتصبح غير قادرة على أداء وظائفها الحيوية بفعالية، أو غير قادرة على أداء وظائفها على نحو مكتمل. هذه خلاصة عدد من تجاربي مع مجموعة من المؤسسات الخدمية، ولا أعمم هذا الوصف على جميع المؤسسات، فلم أتعامل مع جميع المؤسسات، ولم أتعامل أيضًا مع جميع الأشخاص في المؤسسات التي تعاملت معها، فقط أرصد حالات إعاقة وظيفية في عدد من المؤسسات، ما من شك في أنها أثرت على وظائف هذه المؤسسات، وعلى الدور الوطني الذي

ينبغي أن تضطلع به، وما من شك في أن هذا أثّر كثيرًا على الخدمات التي من أجلها أنشأت الدولة هذه المؤسسات، ووضعت على رأسها أولئك المسؤولين؛ ليعملوا على إدارتها بأقصى كفاءة ممكنة، لكن ما حدث أن بعضهم تحول إلى حجر عثرة في طريق عمل المؤسسة التي تولى أمانتها.

* * *

عدت من إنجلترا بحماسة كبيرة ورغبة في نقل ما شاهدته هناك، سواء في إنجلترا أو أوروبا بعد جولات فيها، إلى وطني؛ لخدمة فئة غالية تحتاج إلى تكاتف جهود الجميع، ويتوجب علينا جميعًا أن نكون أطرافهم التي حرموا منها. هذا هو التكافل الإنساني الواجب، والفكر الذي انطلقت منه في عملي في ميدان الإعاقة والتأهيل.

عدت محملاً بأحلام كثيرة، بعد ما شاهدت من خدمات تقدم للمعاقين في أوروبا، على أمل نقلها إلى الوطن من خلال مؤسسة بحثية علمية كبيرة ألتحق بها، بعد التجارب الأوربية العظيمة التي تبعث على الأمل في عالم أكثر يسرًا وسهولة وحفظًا لإنسانية المعاق. ففي الدول الإسكندنافية؛ السويد، والدنمارك، وفنلندا، والنرويج، زرت مراكز تأهيل معاقين ومراكز رعاية كبار السن، ووجدت نفسي

أمام إمكانات خياليــة لا يتصورها العقل، تُقدَّم لهذه الفئة، من رافعات تأتي مع السيــارة المجهزة للمعاق، حيث تحمل الرافعة كرسي المعاق إلى مستوى كرسي القيادة، إلى كرسي المطبخ الذي يجلس عليه المعاق فيقف به الكرسي أوتوماتيكيًا بمحــركات، فيساعد المعاق أو ربة المنــزل المعاقة في المطبخ، من خلال الوقوف بها، على الوصول إلى الأشياء المرتفعة، بــل ويتحرك بهــا في المكان، هــذا إذا كانت طبيعــة الإعاقة تسمح بذلك، أما إذا كانت لا تسمح، ولا يستطيع المعاق أن يقف بالكرســي الهيدروليكي، فهناك زر يضغط عليه فينزل دولاب المطبــخ إلــى مستــواه على عجــلات تتحرك فوق قضبــان مثبتة بالجدران، إلى الأثاث المعد للمعاقين؛ المغاسل التي ترتفع وتنخفــض حسب المستــوى المناسب للمعاق، والأبواب والتلفزيونات والأنــوار التي تدار كلها بالنفخ أو المص في خلايا حساسة، حيث لا يحتاج المعاق سوى النفخ أو المصــ بالشفتين حتى يشغل التلفزيــون أو يضيء النور أو يفتــح الباب، ويناسب هذا مرضى التصلب اللويحي أو الشلل الرباعي والمصابــين بالعنق في الحبل الشوكي، فهذه الحــالات لا يعمل في أصحابها إلا الرأســ، فيضعون له في فمــه أنبوبًا موصلاً بأجهزة تعمل بالنفــخ والمص. فضلاً عن السكن المعدل كليًــا ليلائم استخدامات المعاق واحتياجاته؛

الحمامات، والمداخل، ومقابض الجدران، والسلالم والمصاعد الكهربائية، فيُسْكِنونه في مكان مجهز بالكامل ليعتمد على نفسه.

الجامعات أيضًا توفر جميع التسهيلات للطلاب المعاقين، من؛ منحدرات، وسلالم، فعلى درابزين السلم كرسي كهربائي يحمله للأدوار العليا، وغيرها من الخدمات التقنية والمعنوية.

ولا يحتاج إلى مساعدة من أحد، ولا يحتاج المعاق هناك للذهاب إلى جهة ما للحصول على أي من احتياجاته، بل هناك من يتوجه إليه ليقدم له حقه الذي تكفله الأنظمة والقوانين وتوصله إليه جهات مهمتها خدمة المعاقين، هم من يملؤون له النماذج، بعد اتصاله بهم، ثم يترددون عليه لتقديم الخدمات، فالمعاق هناك لا يراجع أيًا من هذه الجهات.

بهذه المشاهد عدت إلى وطني، وكلي طموح لتطبيقها، وتطويع هذه التقنيات في بلادي، حتى أسهم بذلك في رفع المعاناة عن المرضى والمعاقين وكبار السن؛ لتيسير الحياة لهم، ومساعدتهم على الاعتماد على أنفسهم والاستغناء عن تلقي المساعدة من الآخرين، ففوق أن هذا في حد ذاته مصدر ألم للإنسان، إلا أنه، حتى هذا الألم قد لا يكون متاحًا، فلا

يكون لدى أحدهم من يساعده. كذلك من الممكن في ظل توفير هذه الخدمات أن نأخذ بيد المعاق ليعيش حياة أسهل يستمتع فيها بوجوده في العالم، ولا يعد هذا الوجود لعنة حلت به.

* * *

طبعت نسخًا كثيرة من رسالة الدكتوراه الأوروبية، وعدت بها إلى الوطن، وكان علي أن أبحث بنفسي عن هذه الجهة العلمية التي أنطلق منها في خدمة المعاقين من خلال التوسع في تطبيقات الهندسة الطبية التأهيلية، فقد كانت مهمة وزارة التعليم (العالي) تنتهي عند ابتعاثي، من دون التزام بتعييني. وكان أول ما تبادر إلى ذهني كلية الهندسة بجامعة الملك سعود، فعندهم قسم للهندسة الميكانيكية، وأنا مهندس ميكانيكي في الأساس، وكانت فكرتي حين توجهت إليهم أن ألتحق بهذا القسم ثم أنشئ فرعًا للهندسة الطبية.

دخلت على رئيس القسم. كان مواطنًا خمسينيًا بدينًا، ولسانه خليط لهجات. تفحص الرسالة بين يديه، وتأمل اسم الجامعة، وفوجئت به يقول لي، كما لو كان يقلب بين يديه بضاعة لا يرغب في شرائها: «جامعة سالفورد هذه مش ولا بد». كان ردًا صادمًا من الرجل، فالجهة التي

وافقت على ابتعاثي إلى هذه الجامعة الـ«مش ولا بد»، هي الحكومة السعودية ممثلة في وزارة التعليم. أدركت على الفور أنني أجلس أمام أحد معوقات مشروعي، فلم أطل في الأخذ والرد معه، وذهبت أسأل عن مكتب عميد الكلية، أخذ بدوره يتفحص الرسالة بين يديه، لكن بأداء «زبون» يرغب في الشراء هذه المرة، بخلاف رئيس القسم الذي بخسني بضاعتي، لكنني فوجئت به ينادي على أحد أعضاء هيئة التدريس ويطلب منه أن يأخذ الرسالة ليقيمها. نال مني العجب، وسألته عن تخصص عضو هيئة التدريس الذي يطلب منه تقييم رسالة في تخصص الهندسة الطبية التخصص الجديد تمامًا على كلية الهندسة، فأخبرني بأنه متخصص في ديناميكا الهواء، أي أجنحة الطائرات، فقلت له وقد نفد حلمي: «ما دخل هذا بالهندسة الطبية.. انظر يا سيدي.. لا أريدكم ولا أريد وظيفتكم إذا كانت هذه طريقة تقييم الأمور لديكم، ورسالة الدكتوراه هدية مني لكم، لدي نسخ كثيرة منها».

خرجت من مكتب الرجل بعدما أدركت أنني أمام مصدر إعاقة جديد واجه مشروعي الوطني، وتوجهت إلى وكيل الجامعة آنذاك؛ لكي أشتكي إليه سوء الأداء العام، وتفويت فرصة لإنشاء تخصص للهندسة الطبية في كلية الهندسة

بجامعته، فوجدتني أمام رجل يصغي جيدًا، لكن الإصغاء أقصى ما كان في وسعه تقديمه إلي، إذ حولني إلى عميد كلية الطب الذي وفر علي وعلى نفسه تضييع الوقت في تفحص رسالتي، وأخبرني بوضوح بأن تخصصي (الهندسة الطبية) ليس متوافرًا لديهم في كلية الطب وليسوا بحاجتي.

خرجت من كليتي الهندسة ثم الطب بجامعة الملك سعود آنذاك، بعدما أدركت أن الطريق إلى مشروعي الوطني، ليس بالسهولة التي كنت أتوقعها، وأن طموحي كان بريئًا أكثر من اللازم حين توقعت أن الأبواب ستفتح لي للانطلاق نحو المشروع الطموح، وأن هناك بشرٌ برتبة إعاقات علينا علاجها أو تحييدهم أولاً، قبل أن نفكر في الانطلاق نحو أي مشروع وطني.

* * *

بعد جولتي الصادمة بين كليتي الهندسة والطب ومكتب الوكيل بجامعة الملك سعود، أحسست برغبة في الاستجمام قليلاً والحصول على قسط من الراحة. خرجت من الجامعة واستوقفت سيارة ليموزين أتوجه بها إلى منزل الوالدة في حي الربوة بالرياض، فلم يكن لدي سيارة بعد، وفي الطريق إلى منزل الوالدة، وعلى وجه التحديد عند دوار

المستشفى العسكري عند تقاطع طريق الملك عبدالعزيز مع طريق خريص، لمحت على البعد لوحة مكتوبًا عليها (المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا)، طلبت إلى السائق أن يتوقف أمام المركز الذي اجتذبتني لافتته التي بدت للوهلة الأولى تشبه رسالتي التي أحملها معي.

في صالة استقبال المركز وجدت عاملاً صوماليًا، تلطفت معه ودار بيننا حوار علم منه أنني دكتور أبحث عن عمل، فأرشدني إلى مكتب رئيس المركز بالطابق السادس، التقيت هناك أخًا عربيًا عراقيًا أبيض الوجه مع حمرة، أحسن استقبالي، وجمعتني به جلسة ودية تبادلنا خلالها المفردات العراقية التي حفظتها في إنجلترا، من كثرة ما اختلطت بالأشقاء العراقيين هناك وجمعتني بهم روابط قوية، وعلمت أنه يحمل الجنسية الألمانية.. اصطحبني الرجل بأريحية إلى إدارة المعلومات، وكان قسم الترجمة الآلية في بداياته آنذاك، وطلب مني أن أكتب خطابًا باسم صاحب المعالي رئيس المركز.. كتبت الطلب تحت إشرافه، وسجلت به رقم الهاتف الأرضي في بيت الوالدة، وكنت أنزل فيه إثر عودتي من البعثة ريثما أستقل في منزل، وأرشدني إلى مكتب سكرتير معالي رئيس المركز، حتى أترك طلبي عنده. عدت إلى منزل الوالدة، ونمت ليلتي، وفي تمام الساعة الثامنة من

صباح اليوم التالي، اتصل بي مدير شؤون الموظفين بالمركز، يبلغني بقبولي لديهم، ويطلب مني الحضور لإتمام إجراءات التحاقي بالمركز.. كان علي أن أنتظر حتى يعادلوا شهادتي، وكانت فترة قلق وترقب؛ خشية أن أصطدم بعبارة «مش ولا بد» التي اصطدمت بها في مكتب رئيس قسم الهندسة الميكانيكية بجامعة الملك سعود، لكن بعد نحو شهر، جاءت الإفادة، واتضح أن الجامعة «ولا بد»، وأن العيب في الرجل الذي استقبلني، وأنه هو الذي كان «مش ولا بد».

السرعة التي أنجزت بها معاملتي في المركز الوطني للعلوم والتكنوولجيا (مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لاحقًا)، نفخت فيّ روح الأمل من جديد، وأخذت أستعيد الثقة في واقعي الجديد، لكن إلى حين، إذ اكتشفت معوقات أخرى لا تقل ضررًا عن سابقتها التي واجهتها في كلية الهندسة بجامعة الملك سعود؛ فبعد فترة قصيرة في المركز، توليت منصب نائب المدير للبحوث الطبية في إدارة البحث العلمي. كانت هناك ميزانية قدرها ٣٢ مليون ريال، مخصصة لدعم الأبحاث العلمية في الجامعات، فيقدم الباحثون مشاريعهم البحثية، وبناء على تقييمنا لهذه الأبحاث نقرر الأبحاث التي تستحق الحصول على الدعم، وقدر الدعم المناسب لهذه الأبحاث. وكانت هذه مهمتي،

تقييم الأبحاث، وترتيب الأبحاث المقدمة حسب أولويتها في الحصول على الدعم؛ لأن المبلغ المتاح للدعم كان ٣٢ مليون ريال، في حين كان المطلوب حينها لتغطية جميع الأبحاث ٥٠ مليونًا، فكان عليّ ترتيب الأبحاث بحسب الأهمية والأولوية، فيصرف للأهم، فيما يبقى الأقل أهمية على قائمة الانتظار.

أعملت الفكر البريطاني الذي تشبعت به بعد ١٠ أعوام أمضيتها في بريطانيا من المرحلة الثانوية إلى الدكتوراه، فوضعت قائمة معايير لاختيار الأبحاث وترتيبها وفقًا للمعايير الموضوعة، وفي مقدمتها؛ عمل الباحث على اختراع أجهزة تخدم توطين تقنية ما، ومدى مواكبة البحث لخطة التنمية الوطنية، وبناء عليه وضعت ترتيبًا نهائيًا موضوعيًا دقيقًا للأبحاث، وحددت الأبحاث المختارة وميزانيتها، ووضعت قائمة انتظار للأبحاث التي لم يصبها الدور، ورفعت التقرير إلى الإدارة العليا، وبعد أيام، فوجئت بالقائمة تعود إلي مقلوبة رأسًا على عقب، ويبدو أن وجهة نظرهم كانت مختلفة فيما يخص المعايير والأولويات.

كان من ضمن من لديهم أبحاث قديمة معتمدة لدينا في المركز، ولها مبلغ دعم، عميد كلية العلوم الطبية بجامعة

الملك سعود، وكان بحثه عن تسمم المشيمة، وكان من المهام المسندة إلي في المركز مراجعة ميزانيات الباحثين، والتأكد من أن المبالغ المخصصة لها تصرف بالفعل في الأبواب المحددة لها، ومن حين إلى حين لا يخلو الأمر من احتياج باب من هذه الأبواب إلى دعم يستلزم أخذه من باب آخر، وكنت أتعاون بشدة في هذه الأمور، حتى أسهل على الباحثين، وأمنحهم المرونة التي يحتاجون إليها لتيسير أبحاثهم، فكلما أتاني الدكتور العميد الباحث لطلب تعديل في ميزانية بند من البنود، وترحيلها إلى بند آخر، يجد مني تعاونًا كبيرًا، فلا يجد مني دائمًا إلا كلمة «أبشر».. وكانت عندي صلاحية التنقلات بين البنود، كتحويل بند السيارات إلى بند الأجهزة، وما شابه.. هذه المرونة في التعاون جعلت الرجل يتطلع إلى التعرف إلي، وحين علم تخصصي، أبدى رغبته في انتقالي إليهم في الكلية، لوجود قسم التكنولوجيا الطبية الحيوية بالفعل، لكن لا يوجد فيه إلا بروفيسور باكستاني مع بعض المتعاقدين، وأكد احتياج القسم إلى تخصصي، ورغبته في أن ألتحق بهم، رئيسًا لقسم التكنولوجيا الطبية الحيوية. وافق عرض الدكتور ما أسررته في نفسي، تجاه المركز، وبالفعل قدمت استقالتي من المركز، ولم يثنني عنها عرض ترقيتي إلى مدير للوحدة.

كنت قد عقدت العزم على المغادرة، ولاسيما أنني أخيرًا وجدت الفرصة مواتية للعودة إلى مشروعي الوطني الكبير الذي جئت به من إنجلترا، ولم يكن ينقصني سوى قسم هندسة طبية بإحدى الكليات، وها هو ذا أصبح متاحًا، بل وسأكون رئيسه وأملك من الصلاحيات ما يعينني على تعبيد الطريق أمام الحلم الذي بدت تلوح لي أنواره أخيرًا في نهاية الدرب، وبالفعل التحقت بكلية العلوم الطبية التطبيقية بجامعة الملك سعود، وبهذا أصبحت أول أكاديمي في هذا التخصص في الجامعة، وأول رئيس سعودي لقسم التكنولوجيا الطبية الحيوية (الهندسة الطبية) في جامعة الملك سعود، فالرئيس السابق كان بروفيسورًا باكستانيًا، دارسًا باليابان، لكن الدكتور عميد الكلية أراد أن يكون رئيس القسم سعوديًا؛ حتى يطور القسم، غير أنني اشترطت أولاً موافقة الدكتور الباكستاني، فهو عالم جليل ويقدمني بنحو ٢٠ عامًا، ورغم موافقته وإذنه لي برئاسة القسم، حرصت على أن يظل هو صاحب كلمة مسموعة بالقسم وأن تكون له سلطة كاملة، ولم يزل صديقي إلى اليوم ونتواصل معًا.

هكذا وصلت أخيرًا إلى المياه الدافئة في قسم علمي في مجال تخصصي، في كلية اختارني عميدها شخصيًا بحماسة، بعد تجربة شخصية، أكدَتْ له أنني الشخص

المطلوب، وبصلاحيات رئيس قسم، لكن حلم المياه الدافئة سرعان ما تبدد، وتحولت إلى مياه متجمدة قارسة البرودة، تستحيل فيها أي حياة مرجوة لمشروعي الذي سرعان ما اكتشفت أنه لن يجد طريقه إلى النور في الجامعة، حين وجدت نفسي أمام معوقات أعنف من سابقاتها.

تسلمت قسم التكنولوجيا الطبية الحيوية في جامعة الملك سعود، وشمرت عن ساعدي، وشددت المئزر لأداء مهمة تطوير القسم التي تحدث عنها الدكتور العميد. وجدت غرف المختبرات تستخدم ملاعب بلياردو، فأبعدت الطاولات واستردت معامل القسم المحتلة، بل مارست الاحتلال المضاد وضممت غرفًا إضافية إلى القسم للتوسع في أنشطته. وجدت بالقسم برنامجين اثنين؛ برنامج بصريات معني بقياس البصر والعدسات والنظارات، وبرنامجاً للأجهزة الطبية، كان المسؤول عن برنامج البصريات مدرسين أمريكيين يدعيان «روبرت» و «جورج» لدى كل منهما دكتوراه في البصريات، علمت منهما أنه ليس لديهما في القسم وسائل تعليمية، وأشياء كثيرة يحتاجون إليها. سألت عن مكان بيعها فقالوا بمكتبة دار العلوم بشارع الستين، فوجهتهم بشرائها على أن يأتوا بفاتورة بمبلغ الشراء، وبالفعل اشتروا المستلزمات والكتب

اللازمة لبرنامج البصريات بقيمة ١٦ ألف ريال، فوجهت المكتبة بكتابتها باسم القسم، وأرسلتها مع ورقة بسيطة للعميد للتوجيه بسدادها، فإذ بقيامة تقوم في الكلية، واتصالات تنهال علي من مدير الشؤون المالية، يلومني في «المصيبة» التي ارتكبتها، وفق نص تعبيره، وفي التجاوز الكبير الذي اقترفته، ثم أعقب اتصاله اتصال من مكتب عميد الكلية يريدني، فما إن دخلت عليه حتى وقعت عليه عيناي منتفخ الأوداج، ويبادرني بعبارة لا أنساها لليوم، كانت السبب في انتهاء علاقتي عمليًا بجامعة الملك سعود، وإن كنت بقيت بعدها مرتبطا بهم إداريًا، لكن من دون أن يكون لهذا أي حضور على أرض الواقع، قال لي: «يا دكتور... أنت ما عندك صلاحيات تشتري قلم رصاص».

غضبت بشدة من عبارة الرجل الصادمة، واحتد النقاش بيني وبينه حتى هممت بترك الجامعة والاستقالة، حاول تهدئتي، ومر الموقف ظاهريًا، بعدما قلت له صراحة إنني غير مستعد للعب دور «الطرطور» في هذه المسرحية الهزلية، وإنني جئت لأقدم خدمة لوطني، لا لأكون تابعًا لا صلاحيات له. انتهى الموقف بتحويلي إلى عضو هيئة تدريس عادي، أرفع طلبات وأرسل عرائض للحصول على أبسط احتياجات القسم.

كان المؤلم في قصة الدكتور عميد الكلية، أنه هو على وجه التحديد كان يُفترض فيه ألا يكون هكذا، فسابقًا كنت أطلق يديه في عملي عندما كنت أراجع أبحاثه في المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا، حين أسمح له بأريحية تامة في تحويل بنود ميزانيات أبحاثه بمرونة تامة، على الوجه الذي ييسر عمله، ولا يشق عليه، ثم حين جاء الدور عليه ليعاملني بالمرونة نفسها في أبسط الأمور الخاصة بإدارة قسم، ارتفع صوت الرجل بغضب يحدثني عن الصلاحيات، بلغة مهينة. هكذا لم يسمح لي الرجل الذي أطلقت يده في عملي، بإطلاق يدي في عملي، في واقعة كشفت لي وجهًا قبيحًا لطبيعة الحياة الجامعية، حين تتحول مؤسسات بحثية كبيرة يحتاج إليها الوطن، إلى ميدان لصراع حول الصلاحيات، وحرب الذات، والهيمنة، وغيرها من الاعتبارات التي من شأنها تجميد كل شيء، وتحويل هذه البيئات التي يفترض أن تُهيأ للإبداع العلمي، إلى مواقع وظيفية روتينية، وميدان للتنافس على الوظائف والترقيات، على حساب العلم، والتعليم.

* * *

لا أعرف لماذا ذكرتني هذه الواقعة بواقعة تاريخية من رحلة أبي ، طيب الله ثراه، الرحلة التي تشبه رحلتي

كثيرًا، حتى في معاناتها، يوم كان يعمل في مشروع «سقيا البادية في شمال المملكة»، بعقد طويل الأمد مع وزارة الزراعة والمياه، فكانت الوزارة توكل إليه تأمين مياه الشرب بسيارات نقل المياه التي اشتراها خصيصًا لهذا المشروع، فكان يعبئ المياه من آبار لمياه الشرب في الصحراء، ويوزعها على البيوت، فيوَقّع كل بيت على حصته التي استلمها من المياه، ثم يذهب أبي إلى ديوان الوزارة ليُحَصِّل فواتير المياه منها. وحدث ذات مرة أن استدعته الوزارة بشأن ما أبلغ عنه شخص مجهول، من أولئك المجهولين والمعلومين الكثيرين الذين كانوا يترصدونه بالشكاوى والمكائد. حين تعلو الأنا على المصلحة العامة تتحول بيئات العمل إلى صراع من أجل الأنا، وتتحول مقدرات التنمية التي توفرها الدولة للارتقاء بالخدمات إلى رهن في يد هذا المسؤول أو ذاك، ينفقه وفقًا لاعتبارات الولاء، وليس لاعتبارات المنفعة، ويوجهه في خدمة علاقاته، وليس في خدمة النفع الوطني العام، أو يحبسها، ويتسبب بهذا الحبس في قصور الجهة التي يتسنم هرمها الإداري عن أداء وظيفتها.

نماذج المسؤولين هذه التي تمارس هذه الهيمنة في مواقعها الوظيفية، لتحقيق مكاسب شخصية، أو للتكريس لبقائهم في مناصبهم، وتقريب الموالين لهم لضمان الأمان

التام، أو تتراخى وتتساهل وتفرط في فرص تطوير من شأنها التعظيم من أداء المؤسسة، وتوسيع القاعدة المستفيدة منها، وبالتالي تعظيم حجم الخدمات الوطنية التي سيستفيد منها المواطن، ولاسيما هذا النوع من الخدمات التعليمية ذات الصلة بتطوير الأجيال، هؤلاء يقومون بدور المعوقات في طريق التنمية الوطنية، ويتسببون في تفويت فرص كبيرة على أوطانهم، بإحباط الطموحين النشطين من أبنائها، وتثبيط عزائمهم، وإفقادهم الثقة في واقعهم، وفي قدراتهم على التطوير وعلى أداء أدوارهم التي يتطلعون إليها لخدمة بلادهم، ما يجعل الحاجة ماسة إلى علاج المؤسسات الوطنية، من مثل هذه المعوقات البشرية، وتجنيبها آثارها قدر الإمكان، ومعاملتها معاملة من يهدر المال العام، فإهدار طاقات الأجيال، أخطر من إهدار المال، ولا سيما في وطن مثل وطننا، يراهن على الإنسان، وينفق إنفاقًا هائلاً على أجياله ليسلحهم بالعلم اللازم لبناء بلادهم، فيرسلهم في طلبه إلى جميع دول العالم المتقدمة، ثم يعودون، فيجد بعضهم مثل هذه العراقيل والمعوقات البشرية في طريقه، من دون أن يجد من يلتجئ إليه ليحميه من هذه الممارسات، فمن المؤسف أن من يفترض أن يلجأ إليه، هو المعوق الرئيس.

يقينًا هناك تجارب أفضل، ويقينًا هناك شخصيات رائعة تضطلع بدورها الوطني في أمانة، وقد مررنا في هذه السيرة على ذكر كثير منهم، وغيرهم كثيرون، لكن هذا لا يقلل من خطورة هذه القلة المعوقة، فواحد منهم كفيل بحرمان الوطن من عطاء عالم، أو موهوب، أو وطني طموح لديه مشروع كبير لبلاده.

طويت صفحة الجامعة، لكنني لم أطو صفحة الحلم بمشروع وطني كبير لذوي الإعاقة، فلست بالذي يستسلم، ولاسيما إذا كانت المعركة من أجل المتعبين الذين كنت واحدًا منهم.

«صـاج» النجـــاة

«صاج» النجاة

كان لأبي، الفَلَك الذي دار فيه نجمي في هذا العالم، ومازال يدور حتى اليوم، مقولة شهيرة، لها قصة، لا ننساها أنا وإخوتي والأهل، وكثير ممن عاصروه أو سمعوا به، رحمه الله.

كان، رحمه الله، في مرحلة من مراحل أعماله، ينقل التمر والمؤن من الأحساء إلى الكويت، ومن الكويت إلى البصرة، ومن البصرة أو الكويت إلى الرياض، ومنها إلى الزلفي، وعلى التوازي مع المؤن كان ينقل، أيضًا، الركاب، لكنه لم يكن يتقاضى أجرة من الركاب، وسأله أحدهم ناصحًا: «لماذا لا تأخذ أجرة من الركاب؟»، حاضًّا له على أخذ الأجرة حتى لا يفوت مصدرًا للرزق. فأجابه والدي بجملة أضعها أمامي منهج حياة حتى اليوم. قال له: «أتعرف

الصاج الذي نضعه تحت العجلات حين تنغرس في الأرض أو تعلق في الرمال، حتى نخرجها؟»، وكانت الطرق آنذاك غير معبدة، فكانت طرقًا رملية تنغرس فيها عجلات السيارات أحيانًا، وكان مع كل سائق سيارة قطعة «صاج» يضعها تحت العجلة حتى يخرجها من الرمال حين تعلق. فقال له الرجل: «نعم أعرفها»، فقال أبي: «هؤلاء هم صاج سيارتي، أنقلهم بالمجان فيسهل لي الله الرحلة، لا أتعطل ولا تصيبني مصيبة».

كلما تذكرت هذه العبارة، وتأملت رحلة والدي، والتيسير العظيم الذي رافقها، والتوفيق الكبير الذي عبَّدَ طرق الحياة أمامه، والخير الذي صُبَّ عليه من السماء صبًا، تذكرت قصة الصاج هذه، فلم يفارق الصاج سيارة رحلة أبي في أي درب من دروبها، ركاب ينقلهم بالمجان، وفقراء يمد بيوتهم بالكهرباء مجانًا على نفقته الخاصة، وبعضهم ما زال أبناؤه حتى اليوم يقدمون الاعانات لهم من المبرة الخاصة بأبي، وفقراء آخرون كان والدي يعطيهم حاجاتهم مراعاة لظروفهم، ومساعي خير لأهل الزلفي، إذ كان يدعو الوزراء والمسؤولين لزيارة المحافظة، ويستضيفهم، ويقدم لهم طلبات بالخدمات التي تحتاج إليها المحافظة، وكان منها مستشفى الزلفي التي قدم طلبًا به إلى وزير الصحة،

والبنك الزراعي الذي كان من أوائل الذين طالبوا به وأبرق البرقيات في طلبه، على مستوى المملكة، واليوم ها هو ذا، كيان قوي قائم يقرض المزارعين. وكان من أول من بادر مع مجموعة من أعيان الزلفي في شق طريق الزلفي-القصيم عبر رمال النفود، حتى استكملته الدولة ورصفته لاحقا. كان أبي شجاعًا في المطالبة بحقوق الناس، وبالخدمات التي يحتاجون إليها، مستثمرًا علاقاته الواسعة التي بناها ووثقها على مدار عمره المبارك، رحمه الله.

هكذا، على درب أبي مضيت، وحملت في قلبي الصاج الذي حمله في قلبه، ومشيت به في دروب الحياة، وأتصور أن كثيرًا من المسارات التي ظننتها إجبارية، أو إخفاقات في طريق رحلتي، مثل عدم توفيقي في دخول كلية الطب، كانت تدبيرًا إلهيًا؛ لأخدم فئات أكثر احتياجًا، فئات تعاني، ولا يشعر أحد بمعاناتها، فالمريض له مئات المستشفيات كلها مفتوحة من أجله ومجهزة بأحدث التجهيزات، لكن الوضع لم يكن كذلك حينها أمام الأسرة التي لديها ابن وُلدَ بإعاقة، ولا يعرفون سبيلاً واضحة، يسلكونها، فضلاً عن أنه لم تكن هناك قوانين بعد تنظم حقوقًا نوعية واضحة لهؤلاء حين عدت من إنجلترا، ولم تكن الخدمات والرعاية التي تقدم لهم كما هو اليوم على الإطلاق. كان كل شيء في

بدايته تمامًا، وكان احتياج المعاق أو المسن أو المريض الذي فقد طرفًا، أكبر بكثير من تعويض هذا الطرف، كانت الحاجة ماسة لنظام متكامل، لحملة وطنية كبرى لإطلاق نظام شامل لرعاية ذوي الإعاقة، وتوصيل حقوقهم إليهم، بوصفها حقوقًا وطنية تكفلها لهم الأنظمة، وليست منحة أو مساعدة.

أتصور أن نيتي ورغبتي الجارفة منذ كنت طفلاً في مساعدة أصحاب المعاناة ورفع المعاناة عنهم، هي التي انعطفت بحياتي إلى مضمار خدمة المعاقين، فقد كان الوضع يحتاج إلى شخص لديه من الحماسة ما يلقي بالحجر في بركة الماء الراكدة، وليس إلى طبيب عادي تخرج ويبحث عن وظيفة من وظائف الأطباء الكثيرة الشاغرة في بلادنا، في حين كان الدرب أمامي مثل دروب الماضي التي كانت تسير فيها عربات أبي، غير معبدة، وتحتاج إلى تعبيدها من أجل هذه الفئة الغالية، ولقد كانت هذه الرغبة في مساعدتهم، وهذا الحلم الكبير الذي عدت به إلى الوطن من أجلهم، الصاج الذي أخرج عجلات سيارة رحلتي التي كلما أحسست بأنها تعلق، جاءت دفعة إلهية تخرجني من أحلك الضوائق، إلى واسع الفرج، إلى أن يسر لي الله، وسخرني لتحقيق كثير مما تحقق لهم، وإلقاء حجر كبير في بركة المياه التي جرت اليوم، وأصبحت نهر عطاء، أحمد

الله سبحانه وتعالى أن سخرني لعملية الاستمطار الإنسانية التي حركته من المنبع، وجرى نهر العطاء الذي تنعم به هذه الفئة الغالية في بلادنا اليوم. حتى العثرات التي تسببت في عدم اكتمال رحلتي في المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا (مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لاحقًا)، وكلية العلوم الطبية التطبيقية بجامعة الملك سعود، بدأت أراها لاحقًا أسبابًا للانطلاقة الكبرى نحو خدمة ذوي الاحتياجات الخاصة، الخدمة التي شرفني الله بها، وأعدها مغنمي الأكبر في هذه الحياة، ولم أنشغل في سبيلها بمغانم الدنيا التي طار بها الناس، وتركوا لي هذا التكريم الإلهي، وهو، من دون شك، خيرٌ مما يجمعون.

* * *

بدأت رحلتي مع «صاج» أبي، بعد المقولة الفارقة لعميد كلية العلوم الطبية التطبيقية. أدرت ظهري للجامعة بعدما علمت أنها طريق مغلقة مثل سابقتها، وبدأت أفكر في طريق جديدة أشقها لمشروعي الحلم. كنت مؤمنًا بمعنى مقولة سمعتها، لاحقًا، من وزيرة التنمية الاجتماعية في نيوزيلندا في أحد المؤتمرات التي حضرتها في الخارج، وكانت تخطب قائلة: «إذا ضحكت يتهمونك بأنك خفيف، وإذا كنت تتحدث كثيرًا يتهمونك بأنك ثرثار، وإذا أنفقت

مالاً يتهمونك بالتبذير، وإذا حرصت يتهمونك بالبخل». ثم قالت: «إذا أنت لم تخاطر بشيء، فأنت لا شيء».

ربما سمعت هذه المقولة فيما بعد، لكنها من المقولات التي نشأت عليها في بيت أبي التاجر، ثم رجل الأعمال من أجل التنمية، وقد عاش حياته بين المخاطرة. ولقد قررت فعلاً أن أخاطر / أبادر إلى إلقاء الحجر في بركة الماء الراكدة، وأشق طريقًا في الصخور التي تكبلني في جامعة، ليست لدي فيها صلاحية «شراء قلم رصاص»، ولا حتى صلاحية مخاطبة العميد بشكل مباشر، «ليس لك إلا صلاحية مخاطبة وكيل الكلية، ثم هو يتحدث إلى العميد».

بدأت أكوّن ما يشبه فريقاً للترجمة، بدأ بزميلين، أوكلت إلى أحدهما كتيبًا عن الأطراف بالإنجليزية ليترجمه، وإلى الآخر كتابًا آخر عن الأطراف أيضًا لكن بالألمانية، ووضعت اسمي فريقي (زميلي) على الكتب التي بدأنا نتوسع فيها، وأنا وضعت اسمي مراجعًا، مع اضطلاعي بنفقات الترجمة كاملة، ثم بدأت المخاطرة الكبرى.

خطرت لي فكرة إطلاق مركز مهتم بشؤون ذوي الإعاقة، وفكرت في أن أطلق عليه اسم (المركز المشترك لبحوث الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وبرامج

تأهيل المعاقين)، ومررت على وزارة الصحة، ووُفقت في الحصول على موافقة بإطلاق هذا المركز. وبدأت أكتب خطابات لطلب الدعم لإطلاق هذا المركز مشفوعة بالكتب المتخصصة التي ترجمتها أنا وفريقي، أرسلتها إلى: الملك فهد، وولي العهد، آنذاك، الملك عبدالله، والأمير سلطان بن عبدالعزيز، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، حينها، والأمراء، وعدد من رجال الأعمال الذين تمكنت من الوصول إلى عناوينهم، مفادها أن لدي فكرة تأسيس مركز للمعاقين يقدم الخدمات ويترجم الكتب والأبحاث في مجال الإعاقة، وهذه باكورة أعماله، أعني بها الكتب التي ترجمناها، وأرفقت أيضًا مشروعًا بحثيًا عن تأهيل عواقب شلل الأطفال، أيضًا تمكنا من ترجمته، موضوعه تقييم شلل الأطفال بالمشي قبل تركيب الأجهزة التعويضية وبعد تركيبها، وأوضحت في الخطاب رأس المال الذي يحتاج إليه مشروع البحث.

* * *

على التوازي مع ترجمة الكتب وإرسالها على نفقتي مع سائق خاص إلى هذه الجهات، توجهت إلى وزارة الصحة أطرق بابًا جديدًا، على أمل فتح أفق آخر على طريق رحلة الحلم؛ لعلمي أن لديهم قسمًا للأبحاث. التقيت وكيل

الـوزارة وطلب منـي العمل معهـم مستشارًا غـير متفرغ بمركز التأهيـل الطبي في عليشة، وهناك التقيت مدير مركز التأهيل الطبي المسؤول عـن خدمات الاطراف الإصطناعية والأجهزة التعويضية، فأعـرب لي عن احتياجهم إليّ. كان المركز مستأجـرًا، وجميع غرفه مشغولة، فلم يكن من خيار سوى أن يخصصوا لي غرفة صغيرة في فناء المكان الخارجي (صندقـة)، صممها صاحب المبنى المستأجـر خصيصًا من أجلي، فأصبحـت أتوجه إلى مكتبي (صندقتي) في حوش المركز بعد فراغي من العمل في الكلية.

طلبت بعض الفنيين ليساعدوني في إنشاء ورشة أطراف، وهم يعملون معي للآن بالمناسبة، أحدهم بدأ معي وهو في العشرينات وعمره الآن خمسون عامًا، هندي الجنسية، يدعى توماس، لكن حدث ما غير خطتي بالكامل في تلك المرحلة، وأخذني إلى أفق جديد. طلبت إدارة المركز مني الإشراف على عيادة المركز للمشاركة في تشخيص حالات المبتورين والمشلولين. هذه التجربة لفتت نظري إلى خلل جسيم عندي، فأنا متخصص في مفصل الركبة فقط.. وبعد أكثر من زيارة للعيادة، تبين لي ضعف قدراتي لإنجاز هذه المهمة، لكن تبين لي أيضًا أنه ينبغي علي دراسة الأطراف أولاً؛ حتى أتمكن من دخول هذا العالم،

وأعرف احتياجاته وأدواته، وأقدم خدمة متكاملة، فلعلي أتولى شؤون مركز للأطراف، وأتحمل المسؤولية عنه في يوم من الأيام، بعد تلك المكاتبات التي أرسلتها للجميع. مضى عام على وجودي في المركز، وأنا غير مقتنع بدوري المحدود، ويومًا بعد يوم تأكدت من أنه ينبغي علي دراسة الأطراف، لكنني بالطبع كنت أواصل الإنفاق على نشاط الترجمة الذي توسعت فيه كثيرًا؛ حتى أصبحت لدي مكتبة قيمة من عيون الكتب العالمية التي ألفت في شؤون الإعاقة.

بدأت أول خطوة عملية على طريق دراسة الأطراف، بعدما شددت مئزر الطالب من جديد، وشمرت ساعدي؛ لأنطلق في رحلة علمية عاجلة دعت لها الحاجة، حتى أجمع علوم الإعاقة من أطرافها، وأكون على اطلاع بكل صغيرة وكبيرة فيها. أجريت عدة اتصالات مع جامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالفعل وجدت لدى كلية الطب بجامعة نورث ويسترن Northwestern University في شيكاغو Chicago، برنامجين مدة الدراسة بهما عام؛ ٦ أشهر أطراف اصطناعية، و٦ أشهر أجهزة تعويضية، لمرحلة ما بعد التخرج، وبالفعل راسلتهم فقبلوني. توجهت إلى إدارة جامعة الملك سعود بطلب ابتعاثي على هذين البرنامجين، فأفادوني بأن الجامعة لا تستطيع أن تبتعثني

لعام كامل، وأن ما يمكنني الحصول عليه فقط ٦ أشهر، لقاء إجازة تفرغ للبحث العلمي. لم يكن أمامي خيار سوى أن أوافق، وأقبل بالمتاح على أمل أن يغير الله من حال إلى حال.

سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية... أنجزت الأشهر الستة الأولى في تخصص الأجهزة التعويضية بامتياز، وصنعت بيدي كل شيء؛ أجهزة الأطراف العلوية، والسفلية، وفوق هذا، أنجزت بحثًا علميًا قُبِلَ في مؤتمر باليابان، ولعدم تمكني من السفر لارتباطي بعائلتي، كان معي مدرس ذهب لتقديمه باسمي هناك.

تواصلت مع جامعة الملك سعود من جديد؛ على أمل أن تغير النتائج الكبيرة التي حققتها من موقفهم، بعدما يرون ثمرة الرحلة العلمية، فيتحمسون لعوائدها على الوطن، لكن اللوائح كانت أهم من هذا كله، وتفوقت على البحث العلمي الذي ما وُضعت إلا من أجل خدمته. رفضوا تسجيلي في برنامج الأطراف، وخيروني بين العودة، أو إكمال البرنامج على نفقتي الخاصة، ولم أجد لي ملاذاً بعد الله، سوى أبناء حمود الطريقي، أهل العلم وخاصته، فتواصلت مع أخي ناصر، وبعد أيام قلائل وصلني مبلغ التقديم على البرنامج الثاني في حوالة مالية. وبعد ٦ أشهر من العمل المكثف المتواصل الدؤوب في واحدة

من أرقى الجامعات الأمريكية، كلل الله سبحانه وتعالى جهودي بالحصول على شهادة عليا في الأطراف والأجهزة التعويضية والاصطناعية بتقدير امتياز عام ١٩٨٩-١٩٩٠م. ثم كلل جهودي التي كنت قد نسيتها مؤقتًا في غمرة الدراسة، لكن ما كان ربك نسيًّا، باتصال هاتفي لم يخطر لي على بال، فبينما كنت أرتب أموري للعودة إلى الوطن، إذ باتصال أرضي يأتيني بعد المغرب، من مدير عام مكتب وزير الدفاع والطيران الفريق علي الخليفة، يقول لي: «حين ترجع بسلام الله، أنتظرك عندي.. لك معي شيك بمليون و٣٠٠ ألف ريال، أمر به الأمير سلطان لإطلاق المشروع البحثي الذي كتبت إليه بشأنه».

كان هذا أول عهدي بـ«صاج» أبي، وكدت أبكي من رحمة الله، حين استوعبت ما حدث لي، بدءًا من تخصصي في الهندسة، ومرورًا ببرنامج الدكتوراه في جهاز قياس وثاقة مفصل الركبة، وزيارتي لمركز المعاقين الذي كشف لي عن نواقص أحتاج إليها لأكون على اطلاع واسع ومتكامل في شؤون احتياجات المعاقين، ووصولاً إلى هذا اليوم الملهم في حياتي، كأن الاتصال في هذا التوقيت، شهادة تقدير من السماء لرحلة العام التي تكبدت نصف تكلفتها. تخلت عني الجامعة، وتشبثت بلوائحها على حساب البحث

العلمي، لكن الله لم يتخل عني، وانطلقت عجلات سيارة رحلتي بقوة محمولة على صاج ذوي الإعاقة.

* * *

حين وصلت إلى مكتب صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، آنذاك، رحمه الله، وجدت في انتظاري شيكا بمليون و٣٠٠ ألف ريال، لكنه باسم (المركز المشترك لبحوث الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وبرامج تأهيل المعاقين) الذي لا وجود له إلا على أوراق الرسائل، وفي أحلامي.

أسقط في يدي، وتملكني الذهول وأنا في طريقي من مكتب سمو وزير الدفاع إلى الخارج، ثم ألهمني الله أن أتذكر الوعد الشفهي الذي أخذته من وكيل وزارة الصحة قبل نحو عامين، غيرت وجهتي من المنزل إلى مكتب الرجل ومعي الشيك، وأخبرته بأنني أسست مركزًا لذوي الإعاقة، وأحتاج إلى خطاب من الوزراة يفيد بالموافقة على التأسيس رسميًا، وتفويضي في صلاحيات التوقيع في البنك بصفتي باحثاً رئيسياً مشرفاً عاماً. وافق الرجل، ومنحني الخطاب والأوراق اللازمة، وبالفعل توجهت إلى البنك، وفتحت

حسابًا باسم المركز، وأخذت دفتر شيكات عليه، ولجهلي شبه التام بالشؤون المحاسبية، ورعبي منها، عينت محاسبًا قانونيًا، وأكدت عليه ألا يطيعني في أي إجراء غير سليم محاسبيًا وقانونيًا، وقلت له نصًا: «اصرف أنت بالقطارة على ما نريد». ثم استقطبت فريق عمل محدودًا، بين مشرفين نفسيين وإداريين، وكنت قد عدت إلى مركز التأهيل الطبي في عليشة التابع لوزارة الصحة استشاريًا غير متفرغ، بعدما أصبحت مزودًا بأحدث ما توصل إليه العلم في أمريكا فيما يخص الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية، وأخذت أتوسع في ورشة الأجهزة التي أنشأتها، وطلبت صنادق إضافية للفريق الذي عينته على أملاك (المركز) الذي توليت إدارته، المركز الذي بدأ في «حوش» مركز التأهيل الطبي بعليشة، عام ١٩٨٧م، أديره من «صندقة»، لكن لا يهم، كان الأهم أنه أصبح لدينا بصيص أمل.

طـلاق بائــن

مــن الطرائف التي تعرضت لهــا في هذه المرحلة، لكنها كانت، آنذاك، ورطة كــبرى، ونفقًا حالكًا دخل فيه مشروع المركز المشترك، يوم زارنا رجل أعمال سبعيني، متزوج من شابة اصطحبها معه ليزورنــا، ويتصدق عن زيجته الجديدة

حتى يبارك الله له في عافيته، على ما يبدو لي. أبدى الرجل استغرابه من عملنا في الصنادق، وعرض أن يهبنا حق الانتفاع بفيلا يمتلكها مجانًا لننقل عملنا إليها، ونتوسع في عملنا وفي الخدمات التي نقدمها. كانت انفراجة كبرى.. ١٥٠٠ متر مربع؛ غرف، ومكاتب، وملاحق.. توسعنا في جميع أعمالنا، وازدهر المركز، أقمنا ورشًا لصناعة الأجهزة وتركيبها، وتوسعنا في طباعة المجلات، وترجمة الكتب والأبحاث، وأخذنا نستقبل المراجعين في غرف مخصصة لاستقبالهم. كان المركز باسم محمد الطريقي كباحث رئيس ومشرف عام، لكنني أخذت إذنًا من سمو الأمير سلطان، رحمه الله، بأن يحمل جميع مطبوعاتنا التي نستخدمها في المكاتبات وإصداراتنا وأوراقنا اسم سلطان بن عبدالعزيز، هكذا زادت الثقة في المركز، وأصبح يتلقى الدعم من سموه، بالإضافة إلى ميزانيته الأصلية، وأخذنا نتوسع في قاعدة مراجعينا وفي خدماتنا ونشاطنا البحثي وفي الأجهزة التي نقدمها للناس. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وتعرض هذا الازدهار لمطب صناعي كبير، حين جاءنا رجل الأعمال الذي منحنا حق الانتفاع بالفيلا لنعمل بها، يطلب إخلاء المكان.. عرضت عليه إيجارًا حتى لا نتكبد عناء الإخلاء والبحث عن مكان جديد، فرفض.. أبى إلا أن نخرج؛ لم

تكــن الزوجة الشابة معه في هذه الزيارة، وعلمت لاحقًا أنه طلقها، ودخل في حالة نفسيــة سيئة، كان واضحًا أننا عانينا مع مطلقتــه آثارها، وأنه طلقنا نحن أيضًــا طلاقًا بائنًا، وقرر إلقاءنا في الطريق، ضمن هستيريا طلاق دخل فيها الرجل.

كان لهذا الطلاق البائن من مالك المكان بالغ الإيذاء لنا، ولم أكن أدري ماذا أفعل، لكن «صاج» أبي تحرك من جديد ليخرج سيارة رحلتي من هذه الرمال المتحركة، فبينما كنت في غمرة البحث عن حل للخروج من هذه الورطة، إذ بمكتب وزير العمل والتنمية الاجتماعية، آنذاك، يتصل بي؛ ليخبرني بأن لديه خطابًا من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، رحمه الله، أمر فيه بتخصيص ٥ ملايين ريال سنويًا من أجل (المركز المشترك لبحوث الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وبرامج تأهيل المعاقين)، ويخيرني بين تحويله عن طريق وزارتهم، أو وزارة الصحة، أو وزارة المالية، فاخترت وزارة الصحة؛ بحكم أنها جهة الاختصاص، وخرجنا من بيت الزوجية الذي طردنا منه رجل الأعمال المأزوم، إلى مكان جديد على أملاكنا، بعدما أصبح لدينا، بفضل الله، ثم بدعم فهد بن عبدالعزيز، جعلها الله في ميزان صالحاته، ما يؤمن لنا مقرًا نستأجره بمالنا، وبشروطنا، وليس بيت طاعة كالذي طُرِدْنا منه.

* * *

خمسة ملايين ريال أغدق علينا بها الملك فهد، كانت كافية لاستئجار فيلا بحي الربوة تتربع على ٤٠٠٠ متر، شهدت أيام مجد (المركز المشترك لبحوث الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وبرامج تأهيل المعاقين)، وعهد ازدهاره، وتوسع قاعدة عطائه للمعاقين على نحو غير مسبوق، أطلقنا منه براءات اختراع، وقدمنا للحالات التي كانت تراجعنا بالآلاف؛ أطرافًا اصطناعية، وأجهزة تعويضية، وخدمات تعديل السيارات، وتعديل المنازل، وتركيب الرافعات، والعلاج الطبيعي، والفحص الطبي الكامل، والعلاج الطبي التأهيلي، والعلاج بالعمل، والعلاج الوظيفي، والعلاج المهني، والأبحاث العلمية، هذا كله مجانًا، في ظل إغداق الملك فهد علينا بخمسة ملايين ريال سنويًا، وإغداق الأمير سلطان بثلاثة ملايين.. أصبحنا حديثًا للجرائد، والقنوات التفزيونية التي أصبحنا وجهة لبرامجها، لا تتوقف عن التردد علينا، مع توسعنا في مشروع النشر؛ لإيماني بالتأليف العلمي الذي أدين له شخصيًا، بعد جهود الباحثين التي كانت الصاج الذي أخرجني من رمال الثانوية والبكالوريوس والدكتوراه في إنجلترا، منذ ذلك الحين عزمت على القيام بدوري، بأن

أوفر المؤلفات والكتب للباحثين في هذا التخصص، حتى يتواصل العطاء، وحتى يمثل المركز حلقة وصل بين علوم الغرب والشرق، فقد كنا نوزع حصاد ترجمات المركز على جميع البلدان العربية، تحمل اسم مملكتنا الغالية التي تحولت حينها إلى منارة للعلوم المرتبطة بالمعاقين، فنشرت أكثر من ٦٠ كتابًا بين مترجم، ومؤلف.

كعكة الضـــوء

ويبدو أن تحول المركز الذي بدأ بصندقة إلى مركز إشعاع ثقافي ووجهة لكاميرات الصحف والفضائيات، لفت الأنظار إليه، فبدأت المضايقات، من الراغبين في حصتهم من كعكة الضوء. استدعاني مسؤول كبير في الجهات المعنية، وسألني بوضوح يكشف عن خبيئة نفس الرجل: «لماذا تحمل هذه الكتب اسمك؟»، فأجبته بأن الكتب تحمل أسماء الجميع، المترجمين، والمؤلفين، والمشرف العام الذي هو أنا!!، فدخل في المطلوب مباشرة، بسؤاله: «وأين نحن؟»، فرددت على سؤاله بسؤال، قلت: «وأنتم ما دوركم حتى أضع اسمكم على كتب المركز؟ هذه جهودنا».

منذ ذلك الحين بدأت المضايقات التي انتهت بوقف أنشطة المركز وإغلاقه على يد أحد أصحاب الصلاحيات، وحرمان

نحو ٩ آلاف معاق؛ بين مبتورين، ومصابين بالشلل، من أجهزة بـ ٥ ملايين ريال، كنا قد حصلنا عليها بالفعل، ومن خدمات ١٢٠ منسوبًا هم قوام منسوبي المركز، بين أطباء تأهيل، ومعالجين طبيعيين وفنيي تكنولوجيا التأهيل نساء ورجالاً، انتخبتهم بنفسي، وموظفين، وسائقين، وإدارة استقبال ملفات طبية، وحرمانهم من خدمات العيادات الطبية للاستشاريين الذين كنا نتعامل معهم، إذ كنا نتعاون مع مستشفى الملك خالد الجامعي، وتزورنا عيادات أسبوعية في الأعصاب وفي العظام وغيرها من التخصصات غير الموجودة عندنا، وحرمان مسيرة أبحاث الإعاقة من خدمات الورش والمختبرات وتحليل المشي، وقسم الإرشاد والتوعية، وقسم التحليل النفسي. دفعنا ثمن الصعود القوي الذي يزعج الباحثين عن الأضواء، الباحثين عن الثمار الناضجة حتى يطلبوا حصصهم فيها، وإلا ألقوا بها في البحر، من دون اعتبار لهوية المتضرر، سليمًا كان أو معاقًا..

انتهت رحلة الحلم التي بدأت السير في دربها منذ الطفولة للتخفيف من آلام المتعبين الذين كنت واحدًا منهم. لم تكن المرة الأولى التي أصطدم فيها بخطورة النجاح على صاحبه، وأنه يجعل منه هدفًا مكشوفًا ومشروع طعام للمفترسات الصيادة التي حركتها رائحة

براءات الاختراع والمؤتمرات الدولية وصعود نجم المركز والسمعة العالمية والعربية التي نالها، بامتلاكه مجلة علمية محكمة عن الإعاقة والتأهيل بالإنجليزية، كان أساتذة الجامعة يحرصون على النشر فيها للترقي في الجامعات، فضلاً عن السطوع الإعلامي، وكان هذا الأخير، درة التاج التي استبق الجميع إلى انتزاعها من أيدينا، في وقت كنا منكفئين فيه على عملنا حتى نتوسع في قاعدة المستفيدين من خدماتنا، لكن بعضهم كان يرى الأمور بعين مختلفة، فلا يعنيه المعاق، بقدر ما تعنيه حصته من الأضواء، للصعود على عملنا، وكلها أمورٍ كنت أبعد ما أكون عنها، فأنا رجل من البداية اخترت عالمًا شبه مجهول لأمد لأهله يد العون.. اخترت المتعبين الذين كنت واحدًا منهم، ولو كنت أبحث عن المنجزات الشخصية لبقيت في المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا، أو في الجامعة، وحظيت بالترقيات وحققت المكانة العلمية والأكاديمية والمالية، من دون صراعات أو ركض إلى أمريكا لأدرس من جديد بعدما حملت درجة الدكتوراه.. كنت مشغولاً بالعلم، بمد يد العون لأكبرٍ عدد ممكن من المحتاجين، في حين كان أحدهم مشغولاً بالأضواء، فتواصل التحدي ووضع العراقيل من قبل البعض أمام عملنا، إلى أن وفق القوم في

صاحب الصلاحية الذي أقنعوه بضم خدمات المركز إلى جهة أخرى؛ «لأن بها مستشفى متخصصاً في التأهيل».. كانت هذه هي الذريعة، لكن الواقع كان غير ذلك على الإطلاق.. الواقع كان صادمًا إلى حد الحسرة والبكاء على الحلم الكبير الذي أصبح حقيقة يحتمي بها الآلاف، فلم تنقل أجهزة المركز إلى الجهة المتخصصة حتى اليوم.. أخذت الأجهزة ووضعت في مستودع كالمخلفات إلى أن أعدمت، بعد إغلاق المركز عام ٢٠٠٤م، القرار الذي دخلت على أثره في حالة نفسية صعبة، بكاء طويل، وشبه إضراب عن الأحلام والناس، وقرار أخير بتقديم استقالتي للجامعة التي طالبتني بالعودة للعمل، بعدما كان قرار الأمير سلطان قد صدر لي بالتفرغ لإدارة المركز، وبعد قرار الإغلاق، وجدها بعضهم فرصة للشماتة في عضو هيئة التدريس الذي غامر، وخرج عن السرب، وشق عصا الطاعة، ووصل إلى مكتب النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والمفتش العام، لكنني وفرت على نفسي عناء تحمل عبارات الشماتة المبطنة، وبهجة التشفي في ضياع الحلم من زملاء ومسؤولين في الجامعة كانت لدي خبرة طويلة في مشاعرهم التي تشبه مشاعر كارهي أبي؛ فقط لأنه مختلف، فأرسلت إليهم استقالتي.

هكذا اغتيل حلم المركز أمام عيني بعد بلوغ عامه السابع عشر، ودخوله في طور اليفاع، وتحوله إلى وجهة لأحدث تقنيات التأهيل التي جلبتها من أهم دول العالم وأكثرها تخصصًا.

الحساب الفـــارغ

لكن أكثر ما أعتز به من ذكريات تخص هذه الفترة، وتبدو ذكرى أليمة، لكنها بالنسبة إلي وسام شرف أحتفظ به للتاريخ، أنني حين قدمت استقالتي من الجامعة، وافقوا على الفور، وأرادوا إخلاء طرفي، وطلبوا مني تصفية بعض العهد، كانت تتمثل في كتب أخذتها من مكتبة الكلية، وجهاز عرض (بروجيكتور)، وشاشة، كانت هذه عهدة الجامعة العظيمة، وكان علي للبنك السعودي الأمريكي (سامبا) قرض كنت قد اقترضته لشراء بيت بضمان الراتب، وكان علي مبلغ لماستر كارد أيضًا، وهذه القروض هي وسام الشرف الكبير الذي خرجت به بعد ١٧ عامًا كنت أتحكم فيها بملايين الريالات التي تصرف بأمر مباشر مني، من دون حسيب أو رقيب، إلا ربي، ثم محاسبي الذي عينته، وأكدت عليه ألا يطيعني في أي أمر خطأ.. وفي الأخير خرجت بدين، لم يكن مبلغه متوافراً لدي، وتفضل المرحوم

الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله، بتوجيه أمره الكريم بحل مشكلة إخلاء طرفي، بعدما علم بأمرها في لقاء أخير جمعني به أسأل الله العظيم أن يجعلها في ميزان صالحاته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ويبدو أن قصتي، وما تعرضت له من إيذاء وتنكيل، وصل أخيرًا إلى قيادة وطني الحنون، فأرادوا تكريمي ورد اعتباري إلي، فشرفتني القيادة الحكيمة بمنحي وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى، في حين منحتني الجامعة جائزة التميز مع ميدالية.

هكذا، عاد «صاج» أبي، ليجفف دموعي، ويمسح على رأسي وقلبي، بهذا التكريم من وطني. كأن الله أرسل من يدافع عني، لكن من؟ وكيف؟ حتى الآن لا أدري.

لكن يبقى حسابي الفارغ، ودين قرض المنزل الذي خرجت به بعد ١٧ عامًا من التصرف الحر في عشرات الملايين من الريالات، أرفع وسام خرجت به من هذه المرحلة.

منجزات لا تموت.. ولا تُغلَق أبوابُها

منجزات لا تموت.. ولا تُغلَـق أبوابُهـا

أُوصدَت أبواب «المركز»، لكن العلم لا توصد أبوابه، ولا يموت، حتى بموت العالم، فالعلم إرث ينتقل بين أهله، إلا أنه إرث غير قابل للنفاد، إرث ينمو مع الأيام. نجح فريق الظلام في إطفاء نور المركز، لكن العقل الذي صنع الحلم كان ضد الإطفاء. نعم سقطت فترة، احتجت لبعض الوقت حتى أستوعب أن حلم الطفولة، ورحلة سبعة عشر عامًا من العمل في المركز انتهت هذه النهاية المأساويةِ، لكنني حين شرعت في تقييم تجربتي، وجدت أن الذي أغلِق هو المركز، المشروع، لذا كان علي البحث عن مشروع يمتد عبر الأجيال، وعبر الحدود، مشروع فكري ثقافي علمي، غير قابل للإغلاق.

حملة الأمير سلطان

لطالما آمنت بمبدأ غرس البذور في الأرض في كل مكان، على أمل أن تهيأ لها الظروف للخروج إلى النور، فينبت بعضها، أو تنبت جميعًا دفعة واحدة، ولقد آتت هذه الفكرة ثمارها، بل كانت طوق النجاة الذي ألقته إلي العناية الإلهية، ليكون عزاء كبيرًا لي في كارثة إغلاق المركز، إذ وجدت ضالتي في حملة الأمير سلطان بن عبدالعزيز للرعاية الاجتماعية والتثقيف الصحي والتأهيلي التي كنت المشرف العام عليها، وعكفت عليها أفرغ بها طاقة العمل الكبيرة التي منحني الله إياها، إلا أن هذه الحملة لها قصة، مرتبطة بفكرة غرس البذور الكثيرة، على أمل أن تخرج يومًا إلى النور.

كنت مولعًا بإطلاق الكيانات الخيرية، على غرار (المركز المشترك لبحوث الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وبرامج تأهيل المعاقين) الذي أطلق على الورق ثم أصبح كيانًا عملاقًا، وعلى النهج نفسه أسست مجلس العالم الإسلامي للإعاقة والتأهيل، وكان مجلسًا مكونًا من عدد من الأعضاء لكنه مؤسسة خاصة باسمي أنا، فاستأذنت الأمير سلطان في أن يكون مؤسسة مرخصة من وزارة التجارة وليست مؤسسة خيرية، وأصدرت ترخيص مهنة حرة، وكان هذا من حقي بصفتي مهندسًا ومستشارًا طبيًا تأهيليًا،

وبصفتي أمتلك شهادات في ترجمة اللغة الإنجليزية من أعرق الجامعات والمراكز البريطانية عبر رحلة تعلم الإنجليزية الطويلة. أصدرت ترخيص مركز ترجمة، من وزارة التجارة، أيضًا، وأسست (مركز أبحاث الشرق الأوسط للتنمية الإنسانية)، وأصدرت ترخيص تعليم وتربية وبموجبه أطلقت (مركز العَالم للاستشارات التعليمية والتربوية)، وأصدرت ترخيص مؤَسسة (تأهيل بلا حدود)، وجميعها مؤسسات مرخصة من وزارة التجارة. ومن الطريف أنهم في هيئة الزكاة والدخل لم يستوعبوا الوضع، فقالوا لي: «هل أنت مجنون، عندك ١١ مؤسسة، وكل عام تدفع مبلغ الزكاة عنهم؟». لكنني لم ألتفت، فضلاً عن أن مبلغ الزكاة والدخل لم يكن كبيراً، في ظل عدم وجود نشاط تجاري.. كان هدفي البعيد، تهيئة بيئة العمل استعدادًا لأي مشروعات محتملة، فأسست بأمر الأمير سلطان مؤسسة العَالم للصحافة؛ وتقوم على ٣ مجلات، (مجلة العالم)، وهيَ مجلة علمية تقنية فكرية، ومجلة (الصحة العربيَة)، وتعنى بالصحة الوقائية للمرأة والطفل والرجل والطب البديل، ومجلة (عالم الإعاقة)، وهي مجلة تعنى بشؤون الإعاقة والشيخوخة.

وكانت حملة الأمير سلطان بن عبدالعزيز للرعاية الاجتماعية والتثقيف الصحي والتأهيلي، مبنية على ثلاثة

محاور؛ المحور الأول للخدمات، من خلال المركز، ويقدم الأطـراف الاصطناعية والأجـهـزة التعويضية والمساعدة وغيرها، المحور الثاني الإعلامي والتثقيفي والتوعوي، من خلال مؤسسة العَالم للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، والمحور الثالث هوَ الـذراع البحثي العلمي، ويقوم على الابتكار والأبـحـاث والـوقـايـة والـعـلاج والتأهيل. هكذا تحولت هذه الكيانات التي أطلقتها جميعًا، قوام حملة الأمير سلطان بن عبدالعزيز للرعاية الاجتماعية والتثقيف الصحي والتأهيلي، الحملة التي تعد مشروعًا عملاقًا لا يقل أهمية وحضورًا وفائدة عن المركز، بل كانت متنفسًا وبابًا لعطاء جديد من نوع مختلف، فتحت أبوابه على مصراعيها أمامي، إذ شاركت في مؤتمرات كثيرة، نظمناها من خلال الحملة وعبر كيان مجلس العالم الإسلامي للإعاقة والتأهيل، الجهة المنظمة، المركز الذي أسسته من قبل، فكان المجلس والمركز، قبل أن يُغلق، ومؤسسة العالم للصحافة، ودار الاستشارات الطبية، مكونات حملة الأميرَ سلطان بن عبدالعزيز للرعاية الاجتماعية والتثقيف الصحي والتأهيلي. وكلها كانت تحمل، رسميًا، اسم المؤسس الراعي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود، النائب الثاني لرئيس مجلس الـوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، مكتوبًا على أوراقنا الرسمية كلها ومطبوعاتنا، فكلها تحمل هذا اللقب، وكان هذا جواز عبور

لكل المؤسسات الحكومية والخاصة والأهلية، ورجال الأعمال. كنت أدخل على جميع المسؤولين في الدولة دون موعد ودون حجاب لارتباطي بالأمير سلطان، مستشارًا لسموه، ومشرفًا عامًا على حملة الأمير سلطان الخيرية، فيوافق على جميع طلباتي ومقترحاتي التي أقدمها على ورق يحمل اسم الأمير سلطان، بالطبع بعد أخذ موافقة سموه.. وكان هذا باب خير كبيرًا مفتوحًا على مصراعيه أمام المحتاجين، أكتب للأمير سلطان وللملك، فلا يُرَدُّ لي طلب؛ سيارات معدلة للمعاقين، وأجهزة غالية الثمن، وعلاج بالخارج، وبالمستشفى العسكري، والتخصصي، وأوامر إعفاء من قروض، ومنح مالية للفقراء والمحتاجين، ولم يكن الملك أو الأمير سلطان، رحمهما الله، يترددان أبدًا في الموافقة على أي شيء يخص المعاقين، أو الضعفاء، فكانت جميع طلباتي من أجلهم تلبى، جعله الله في ميزان صالحاتهما رحمهما الله. ولقد ظللت أكتب للأمير وللملك من أجل المعاقين والمحتاجين، حتى بعد فك الارتباط مع الأمير، فلم أتوقف يومًا، وإلى الآن، عن الطلب من أجل المعاقين، ولم يردني الراحلان العظيمان إلا مجاب السؤال، طيب الله ثراهما.

هذه الأشجار العملاقة التي وفقني الله في غرس بذرورها، وأظلت آلاف المعاقين والمحتاجين، وأظلت واقع

الإعاقة كله عبر قائمة من المؤتمرات والندوات المحلية والعالمية التي وضعت قضايا الإعاقة في قلب بؤرة ضوء إعلامي عملاقة، تجعلني أشعر بعزاء كبير في إغلاق المركز، فقد أغلق واحدٌ من أبواب الحلم الكثيرة التي فتحتها، وبقيت لي بقية الأبواب. ربما اشتد علي إيلام هذا الأمر؛ لأن المركز كان أول مولود لي، ولأنه أول صرخة لميلاد مشروع إنساني كبير، لكنه لم يكن كل شيء، فبعد إفاقتي من الصدمة، بدأت أستعيد اتزاني، وبالفعل وقفت على قدمي من جديد، وواصلت العمل على تعهد الأشجار التي غرست بذورها، حتى أصبحت أشجارًا عملاقة، تفيأ ظلالها آلاف المتعبين من عناء الرحلة، وحملت الرياح بذورها الكثيرة إلى جميع أصقاع الوطن، وكثير من أصقاع الأرض. هذا كله استعصى على الموت والإغلاق، وبقي عزاءً كبيرًا لي في نهاية الرحلة.

إصدارات «العَـالِـم»

وجدت الإصدارات والكتب والأبحاث التي صدرت عن المركز، طريقها إلى خارج الحدود، فكان عزائي في إغلاق المركز الشامل، هو كمّ الإصدارات التي أثريت بها عالم الإعاقة في المنطقة العربية، وليس المملكة أو الخليج وحسب، إذ قُررت إعانات سنوية للمجلات والإصدارات

التي تخرج عن مؤسسة العالم للصحافة من وزارة الإعلام بمعدل أكثر من مليوني ريالَ. لم يصرف لي ريال منها، إلى أن صدر قرار بإيقاف الإعانات، بعد ١٠ سنوات من تاريخ ترخيص المجلات الثلاث؛ مجلة العَالم، ومجلة عالم الإعاقة، ومجلة الصحة العربية.. للآن مستَحق لهذه المجلات بعد ١٠ سنوات، ما يقارب ٢٣ مليون ريال، ولم يصرف لي ريال واحد منها، وكان المفترض أن يكون هناك اشتراك سنوي من وزارة الإعلام بمبلغ مثيل، في السنة، لكنْ لم تشترك الوزارة إلا بمبالغ هزيلة.

كانت المجلات تصدر ورقية أيام نشاط المؤسسة بدعم الأمير سلطان بن عبدالعزيز، فاقترحت أن توزع المجلات على متن الخطوط السعودية شهريًا، واقترحت ٧٠ ألف نسخة من كل مجلة، فصدر أمر الأمير سلطان للخطوط السعودية بتوزيعها على الركاب مجانًا في جميع الرحلات. وبقينا نسلم للخطوط شهريًا ٢١٠ آلاف نسخة ونأخذ سندًا بهذا، بقينا على هذه الحال عامًا أو أكثر.. وصل الحساب إلى ١٠ ملايين و٨٥٠ ألف ريال، لكنهم عادوا وقالوا هذه هدية، وضاعت أيضًا. ولليوم ونحن نطالب الجهات المعنية بما فيها الخطوط السعودية، والمعاملات تدور بين تلك الجهات، من دون فائدة.

لكن، على ما تكبدته من خسائر فادحة، ولم أزل أتكبده حتى اليوم؛ لحرصي على بقاء هذه الإصدارات، ولو على نفقتي الخاصة، إلا أن هذه أجمل خسائري في هذا العالم، خسائر برتبة مغانم، فليس أبقى من العلم نفعًا للناس، وسيرة للعالم، ونشر العلوم التي تخدم قضايا المعاقين، أبقى وأوسَع نفعًا وأبقى أثرًا من تقديم الخدمات المباشرة أو العينية لهم، لأن تقديم الخدمات يبقى محدودًا بالمكان والزمان والإمكانات، أما نشر العلم، فنفعه بلا حدود.

والآن حولت هذه الإصدارات إلى مجلات إلكترونية، بعد توقيعي عقدًا مع إحدى الشركات لإدارة تحريرها تحت إشرافي.

الحجر والماء

من الأحلام التي لم تتم واستعصت على الإغلاق أيضًا، وكان تحققها عزاءً لي يوم جمعت جميع القوانين الخاصة بالمعاقين وحقوقهم وتنظيماتهم حول العالم، ووضعتها في كتاب، وأهديته إلى الملك فهد، رحمه الله، عام ١٩٨٩م. كانت بذرة وضعتها في تربة خصبة، في بلد محب للخير ومحب لأبنائه. نعم لم يكتب لي أن أتعهد هذه البذرة التي بذرتها، لكن الله سخر لها من هو أقدر على تعهدها ورعايتها

حتى أصبحت شجرة عملاقة تظل المعاقين في بلادنا، وينعمون بثمارها؛ فبعدها جاء مركز الملك سلمان لأبحاث الإعاقة بقيادة الأمير سلطان بن سلمان، وتبنى سموه المشروع الوطني العظيم. أمددتهم بجميع المعلومات، وبالفعل صدر قانون حقوق المعاقين باسم مركز الملك سلمان لأبحاث الإعاقة بقيادة الأمير سلطان بن سلمان الذي مرر القانون من مجلس الشورى إلى الديوان الملكي ومجلس الوزراء، ثم إلى النور، فأحمد الله سبحانه وتعالى أن أكرمني وسخرني للإسهام بالشرارة الأولى لهذا القانون الذي كلما تذكرته، وتذكرتِ عملي على جميعٍ القوانين وإهدائها للملك فهد مطالباً بهيئة مستقلة تُعنى برعاية الأشخاص ذوي الإعاقة، أشعر براحة نفسية عظيمة، وأنا أرى باب العطاء الكبير الواسع الذي فُتح للمعاقين في وطني على مصراعيه، بصدور قانون حقوق المعاقين وتأسيس هيئة رعاية الأشخاص ذوي الإعاقة في المملكة العربية السعودية الذي مَنَّ عليَّ المولى الكريم بأن يكون لي سهم فيه.

تكريم الـــذات

ما من شك في أن النفس الإنسانية جبلت على حب التكريم والعرفان، لكن هذا قد لا يتيسر للإنسان، وهذا من

اختبارات الحياة، فإن حرمك الآخرون نعمة التكريم، فتعلم كيف تكرم ذاتك، تعلم كيف تجتهد في العمل، وتعكف على صناعة منجزاتك، فمنجزات الإنسان تبقى حاجزا لمواجهة الجحود أو النكران، لأنه هو الذي يمنحها لنفسه، ولا ينتظرها من أحد. وحين بحثت عن هذه المنجزات التي كرمت بها نفسي، وجدت بين يدي عددًا من الألقاب التي أنظر إليها باعتزاز؛ لأني أستحضر بها أجمل أيام رحلة العمر، وأصعبها، وثمارها التي هونت عليَّ مشقتها، فاليوم أنا أول سعودي حمل الدكتوراه في مجال الهندسة الطبية الحيوية والأطراف الإصطناعية، وأول بروفيسور في هذا المجال، وأول أستاذ عضو هيئة تدريس بكلية العلوم الطبية التطبيقية بجامعة الملك سعود، من منسوبي الكلية، وليس منتدبًا من كلية الطب أو الصيدلة أو الزراعة، وأيضًا أول مستشار للإسكان التنموي، في (وزارة الإسكان) وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان الآن، فيما يخص احتياجات المعاقين والمسنين من المواطنين المستهدفين بهذه الخدمة؛ فهو إسكان أشد المواطنين حاجة في المجتمع، ومنهم المعاقون؛ فكان دوري الإسهام في تعزيز جهود وزارة الإسكان لتمكينهم وتأهيلهم ليحققوا الاستقلال الذاتي، لتحويلهم من دائرة الاحتياج إلى دائرة الإنتاج،

ومن دائرة الاعتمادية إلى دائرة الاستقلالية، ومن دائرة الرعوية إلى دائرة التنموية، وكانت هذه المرة الأولى التي تستعين فيها وزارة الإسكان بخبرات مستشار في شؤون الإعاقة في مشروعاتهم، ضمن توجه عام في الوزارة لأنسنة هذا القطاع السكني، وتمكين المعاقين من تجربة فريدة في مشروعات الإسكان التنموي بالوزارة، وهي خطوة تحسب لوزير الشؤون البلدية والقروية والإسكان الشاب الطموح ماجد بن عبدالله الحقيل، الذي التفت بقوة إلى هذه الفئة.

هذه كلها ألقاب، غير قابلة للمحو أو «الإغلاق»، بها أفخر وأجد عزائي في مواجهة ما حدث لمشروع العمر (المركز).

إرث العـــلم

مــن المنجزات غير القابلــة للطّمر أو التجاهــل، أيضًا، حصــاد تجربتي في جامعة المجمعة، الجامعة التي وإن كانت تجربتي فيها جاءت متأخرة وقصيرة، إلا أنها كانت أبقى أثراً وأكثر نفعًا من تجربتي في جامعة الملك سعود، فبعد التحاقي بالجامعة للعمل أستاذًا متفرغًا، اقترحت عليهم أمرين؛ الأول تأسيــس بكالوريوس في الأطــراف الاصطناعية والأجهزة التعويضيــة، ووافقــت وزارة التعليم (العــالي)، آنذاك،

وأنشئ البكالوريوس، وهو الثـاني في المملكة بعد جامعة طيبة. ثم اقترحت تأسيس مركز أطراف إصطناعية وأجهزة تعويضية وتقنيات التأهيل، على ألا نكلف ميزانية الجامعة قيمــة إنشائــه، وأن نسعى للحصول علــى تمويل. عكفت بنفسي على عمل الدراسة الخاصة بالمركز، ولقيت إعجاب إدارة الجامعة، وقُدمت إلى أحــد رجال الأعمال، وبالطبع استفدت من خبراتي القديمة في استقطاب الدعم والمساندة من أجل المعاقــين حين قابلت الرجل مـع وفد من الجامعة يتألف من عميــد الكلية والوكيل؛ لطلــب الدعم لتأسيس المركز وفــق الدراسة التي أعددتهــا، وبالفعل وافق الرجل على تقديم الدعم. وقبل أن أغادر جامعة المجمعة اقترحت مجددًا إنشاء درجــة ماجستير في الهندسة الطبية الحيوية، وقد كان، ودرّست جزءًا من المناهج في هذا الماجستير قبل أن أغادر الجامعة، ومازال خريجو هذا الماجستير يتواصلون معــي حتى اليوم، فقــد كان من منجزاتي التــي أعتز بها، علاقاتي الإنسانية العميقة التي بنيتها مع الطلاب، الصغار، قبــل طلاب الماجستير، وقبل أعضاء هيئة التدريس. وللآن أعــزي نفســي في مشروع العمــر وحلم العمــر الذي لم يستمــر، بحصــاد رحلتي القصــيرة في جامعــة المجمعة؛ بكالوريوس الأطــراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية،

والمركز الدولي للأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية وتقنيات التأهيل، وماجستير الهندسة الطبية الحيوية، وأكثر مـن جيل من الطـلاب المحبين الذين نجحـت في أن أنقل إليهـم حب خدمة ذوي الإعاقـة، باحتساب عند الله، ومن دون انتظـار أجر، فسعادة خدمة هـذه الفئة الغالية، أعظم أجر يمكن أن يحصل عليه الإنسان.

معالم فـي الـذاكـرة

تبقى مدينة الأمير سلطان للخدمات الإنسانية، معلمًا لا يمحى من معالم ذاكرتي، معلَم راسخ، وأكبر عزاء يمكن أن يخفف عني بعض خيبات الأمل، فلقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى علي بنعمة المبادرة والمشاركة في تأسيس هذه المدينة، ووضع اللبنات الأولى لإنشائها.

حدث ذات يو م أثناء دوامي في المركز في المبنى الموهوب قبل أن يطلقنا صاحبه الطلاق البائن، ودخلت علي سيدة فاضلة من أسرة معروفة، كانت تعمل وكيلة في جامعة الملك سعود. قالت لي السيدة: «يا دكتور نحن لدينا أسر معوقين ضائعون ليس لهم ملجأ». فقلت: «كيف؟»، قالت: «هناك فئات عمرية بينية لا يقبلهم المركز هذا ولا ذاك.. لا تقبلهم وزارة الصحة في مراكزها، ولا وزارة الشؤون الاجتماعية

في مراكزها».. قلت: «وما الذي يمكنني تقديمه؟»، قالت: «أنت رجل متخصص وأريدك أن ترفع طلبنا هذا لشخصية إنسانية مثل الأمير سلطان بن عبدالعزيز»، قلت: «وما الطلب؟»، قالت: «إنشاء مركز لتأهيل الأطفال المعاقين من عمر كذا إلى عمر كذا».

أجبت بالموافقة على طلب السيدة، وعكفت على كتابة مذكرة من ٢٥ صفحة عام ١٤١٢هـ لإنشاء مركز أطلقت عليه في المذكرة «مركز الأمير سلطان بن عبدالعزيز لتأهيل الفئات الخاصة»، لرفعه إلى الأمير سلطان، لكن السيدة عادت واقترحت علي تقديمه للأمير سلطان من خلال الأميرة ابنته، وكانت السيدة تعرفها، فاستحسنتُ الفكرة، وأعطيتها التقرير المفصل لتسلمه للأميرة، وبالفعل سلمته الأميرة لوالدها الأمير سلطان بن عبدالعزيز وكان مكتوبًا عليه اسمي وأرقامي وعنواني.. فقط أسبوعان واتصل بي معالي رئيس المكتب الخاص للأمير سلطان، وقال: «الأمير يريدك».. وذهبت، فأطلعني على تعليق الأمير على التقرير بخط يده.. ويفيد بإسناد إنشاء المركز إليّ. تجاذبني الفرح والخوف، وبدأت العمل. كنت أجتمع أنا وفريق العمل مع الأمير بالرياض وبجدة حتى اكتمل عرض المشروع، فقال الأمير: «لا أريد مركزًا تكلفته ٢٠ مليون ريال، أنا أريد

مستشفى»، ذهبنا نبحث عن مستشفى، فوجدنا مستشفى جديدًا لم يشغل بعد، لكن الأمير لم يقتنع، وقال: «أنا عندي أرض في بنبان مساحتها مليونا متر مربع، نريد أن نقيم فيها أكثر من مستشفى هناك وتكون مدينة إنسانية؛ مستشفى للمسنين، ومستشفى للأطفال، وهكذا، وبدأنا العمل، ودخلت أطراف أخرى معنا في لجنة للإشراف على المشروع، كان لي آراء مختلفة عنها، فاكتفيت بدوري حتى هذه المرحلة، وتركت الإخوة يواصلون المسيرة بعد استئذان الأمير. أوكل إنشاء المدينة إلى شركة أمريكية، وخرجت المدينة العظيمة إلى النور.

وقد شهدت رحلة تأسيس المدينة عام ١٩٩٢م إطلاق «المشروع الوطني لأبحاث الإعاقة والتأهيل داخل المجتمع».. كان هذا المشروع من أهم المحطات العلمية البحثية في حياتي، ففي العام الذي اقترحت فيه على الأمير سلطان مركز رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة الذي تحول إلى مشروع ضخم هو مدينة الأمير سلطان للخدمات الإنسانية، قلت للأمير إن القرارات دائما تبنى على نتائج أبحاث علمية، وتمنيت على سموه أن يوافق على قيامي بتصميم مشروع بحث وطني يشمل جميع مناطق المملكة؛ لأن مشروع المدينة مشروع وطني وليس خاصًا بالرياض،

فقال رحمه الله: «توكل على الله».. وكنت محتاجًا إضافة إلى التمويل دعماً فنياً فخاطبت وزارة الصحة بشأن المشروع لمسح حالات الإعاقة وخدمات التأهيل وتقييمها؛ حتى نعثر على الفجوة، ونعني بها حجم القصور في الخدمات، وبناء عليها نحدد حجم المشروع في ضوء الخدمات المطلوب تقديمها، فجندنا موظفي وزارة الصحة في المراكز الصحية في إجراء المسح، عبر زيارات ميدانية وبنينا النماذج، وأجرينا عينة عشوائية بموجب معايير منظمة الصحة العالمية وأخذنا ١٠٠ ألف شخص عينة تمثل سكان المملكة، فأوجدنا النسب والخدمات، وبناء على الفجوة حددنا تخصصات المدينة وحجم الخدمات المطلوبة منها، لتصميم المباني في ضوئها. أرسلنا نتائج الدراسة إلى منظمة الصحة العالمية، وأرسلوا لنا شهادة إعتماد وترجمناها للإنجليزية ووزعناها عالميًا، وكنت أنا الباحث الرئيس.

هكذا ذرعت المملكة طولاً وعرضًا على طريق إعداد الدراسة التي صممت على نتائجها مدينة الأمير سلطان للخدمات الإنسانية، قبل أن أنسحب من اللجنة المشرفة عليها. لكنني كنت مقتنعًا وراضيًا؛ لأنني أديت الدور الذي يعنيني في إنشائها، دور البحث العلمي الذي أؤمن بأهميته قبل البدء في أي مشروع وطني.

وكان من جميل تدبير الله، أنه في طريق رحلتي الأسبوعية إلى الزلفي، إلى أمي، وإلى عظام أبي، تلوح لي بنبان كلما مررت بها، فأبتسم لمعلم الذاكرة الجميل الذي يعزيني كلما مررت به في المركز الذي أغلق. أرى المدينة إلى يساري في طريق رحلتي للزلفي، فتعتريني الفرحة والغبطة والسرور، حتى لو لم أكن مديرًا لها، فالله لن ينسى دوري فيها، تمامًا مثل المركز، ومثل مركز الأمير محمد بن فهد لتكنولوجيا التأهيل في المنطقة الشرقية الذي قدمت استشارات تأسيسه مجانًا، ومراكز أخرى للمعاقين لم أتقاضى أجور استشاراتها؛ أردت أن تبقى معالم في الذاكرة، غير قابلة للمحو أو الإغلاق، وبذور خير تظلني أشجارها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

عـــــــزاء

عـــــزاء

نعم مثّل إغلاق المركز، وخزة ألم لا تنسى، بعد سلسلة من المضايقات، وقبل سلسلة من التطورات الدراماتيكية، بل التراجيدية، انتهت بانسحابي من الصورة، واكتفائي بما قدمته، وترك الحقل للآخرين، بعدما مهدت التربة، وغرست البذور، ورأيت بعيني بدايات نمو أشجار عالم المعاقين الجديد، العالم المزدهر المغاير تمامًا لما كانت عليه الحال يوم عدت من إنجلترا بأحلامي الكبيرة التي حققت جزءًا منها، وألقيت بحجر الماء الكبير في بركة الماء الراكد، ثم انسحبت وأنا مطمئن تمامًا إلى أن الآتي للمعاقين سيكون أجمل، لكن وخزة الألم لا تدوم طويلاً، حين أستعين عليها،

بعد الله، بتأمل محطات الرحلة الطويلة الحافلة بصفحات من المنجزات التي وفقني الله إليها في زمن قياسي، أقل بكثير مما تحقق.

هكذا، كانت رحلتي دائمًا، عدْوًا سريعًا بلا توقف أو راحة أو أوقات فراغ، تمامًا مثلما ملأت أوقات فراغي الأولى في السنة الأولى في إنجلترا، بمضاعفة دورات اللغة الإنجليزية، بعد طلبي من الملحقية السعودية إلحاقي ببرنامج آخر، ومثلما ملأت أوقات فراغي في المرحلة الابتدائية بالتردد على منزل المعلم هارولد والتن ومحاسبي شركة والدي لأستزيد من التحصيل الدراسي، ومثلما ملأت جميع أوقاتي في فترة الدكتوراه بالتردد بين المحاضرات في جامعة مانشستر ومنزل البروفيسور جون، في سباق مع الزمن لإنجاز رسالة الدكتوراه، لكنني حين عدت إلى المملكة، ضاعفت من سرعات قطار الرحلة، وسيرت رحلاته في جميع الاتجاهات، ملأت جميع الأوقات، وطرقت جميع الأبواب مرة واحدة، لم أكتف بحياة واحدة، فصنعت منها حيوات كثيرة، كل حياة لم أقنع منها بمنجز واحد، إلى أن جاء موعد الوصول الإجباري الذي لم أختره، لكنني وجدت بين يدي قائمة طويلة من المنجزات، حصاد رحلة البحث عن المتعبين الذين كنت واحدًا منهم يومًا، واخترت

أن أعيش بينهم، أتقاسم معهم تعبهم، وأبذل جهدي للتخفيف منه، واليوم، بعد عمر من التعب الإجباري في الطفولة، ثم عمر من التعب الاختياري حتى اليوم، أجد بين يدي من حصاد العمر هذا العزاء:

براءات اختراع:

- براءة اختراع أمريكية في عام ١٩٨٩م: مفصل كاحل دوار قابل للانغلاق لطرف اصطناعي ذي بنية تجميعية للبتر تحت الركبة.
- براءة اختراع أوروبية عام ١٩٩١م: جهاز للتحليل الكمي لعدم وثاقة الركبة البشرية في الجسم الحي دون التعرض للأنسجة.
- براءة اختراع أمريكية في عام ٢٠٠٨م: جهاز دوراني للكاحل الإصطناعي ذو جهد قابل للتعديل للطرف السفلي.
- براءة اختراع سعودية في عام ٢٠٢٠م: دواسة الباب الطبية للوقاية من العدوى.
- براءة اختراع سعودية في عام ٢٠٢١م: عصا طبية متعددة الأغراض.

أبحاث:

- تقديم أكثر من ١٥٠ بحثاً منشورة في مجلات علمية ومؤتمرات عالمية في مجال الأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية، وتأهيل المعوقين ورعايتهم وتقنين حقوقهم.
- الإشراف على إصدار ما يربو على ٦٠ مرجعًا وكتابًا علميًا.

مشاركات قيادية ومنبرية:

- رئاسة مجلس العالم الإسلامي للإعاقة والتأهيل.
- مستشار ورئيس فريق العمل في مدينة الأمير سلطان ابن عبدالعزيز للخدمات الإنسانية.
- مستشار ومعد دراسة مركز الأمير محمد بن فهد لتكنولوجيا التأهيل.
- مستشار وزارة الصحة والمراكز المشتركة لنشر ومراقبة التأهيل، وكذلك عدد من الجهات الحكومية ذات العلاقة.
- في مقدمة المشاركين في المؤتمرات والندوات المحلية والعربيــة والعالمية، ومنهــا: نيوزيلنــدا، وماليزيا،

وألمانيـا، والولايات المتحـدة، والسويد، والنمسا، والنرويـج، وسنغافـورة، وإندونيسيـا، والمملكـة المتحدة، والصين، واليابـان، وفنلندا، والهند، في مجال رعاية المعاقين.

- تنظيم ندوات ولقاءات وحملات إنسانية في مجال خدمـة الإنسـان في كل مـن؛ سوريـا، والأردن، واليمن، وقطر، ولبنان، والإمارات العربية المتحدة، والسودان، ومصر، وغيرها.
- من خـبراء الإعاقـة العالميين المشاركـين في صياغة حقـوق وقوانـين وتشريعـات ذوي الاحتياجـات الخاصة في الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية.
- التزكية لقيادة انطلاقة تفعيل دور منظمات المجتمع المدني في قضايا التنمية الإنسانية عبر إنشاء مركز أبحاث الشرق الأوسط للتنمية الإنسانية وحقوق الإنسان على هامش اجتماع لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، في دمشق.
- مرشح منظمـة الصحة العالمية لتـولي مهمة المنسق الوطنـي لتوسيـع وتطويـر الخطة الوطنيـة للتأهيل الطبي للمعوقين ورعاية المسنين بالمملكة.

عضوية الهيئات والمنظمات الدولية:

- عضوية المجلس الأمريكي لمستشاري الإعاقة والتأهيل DIPLOMATE OF ABPDC بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عضوية الجمعية العالمية للأطراف الاصطناعية والأجهزة التعويضية بالدنمارك.
- عضوية جمعية الهندسة الحيوية بالمملكة المتحدة.
- عضوية الجمعية البريطانية لبحوث تقويم الأعضاء بالمملكة المتحدة.
- عضوية معهد المهندسين الميكانيكيين بالمملكة المتحدة.
- عضوية الجمعية الأمريكية للوسائل التكنولوجية المساعدة للمعوقين بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عضوية الجمعية الأمريكية للتقدم العلمي بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عضوية اللجنة الاستشارية العلمية الدولية حول تهيئة ظروف البيئة والعمل.
- عضو مجلس إدارة مؤسس لجمعية رعاية مبتوري الأطراف (بتور).

- عضو مجلس إدارة مؤسس لجمعية رعاية كبار السن (كبار).
- مستشار المقرر الخاص المعني بشؤون الإعاقة بالأمم المتحدة.

منجزات إعلامية:

- رئاسة تحرير والاشراف العام على مؤسسة العَالِم للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع
- رئاسة تحرير مجلة العالِم (ثقافية، فكرية، جامعة).
- رئاسة تحرير مجلة الصحة العربية (صحية، توعوية، أسرية).
- رئاسة تحرير مجلة عالم الإعاقة (توعوية، تثقيفية، تعنى بقضايا ذوي الإعاقة والاحتياجات الخاصة).
- رئاسة تحرير مجلة الصحة العربية (باللغة الإنجليزية).
- رئاسة تحرير المجلة السعودية للإعاقة والتأهيل (باللغة الإنجليزية).
- الكتابة بانتظام على مدار أعوام لصحف عربية.

- الكتابة بانتظام على مدار سنوات في صحيفة (البيئة والصحة) المصرية.
- الكتابة لعدد من الصحف السعودية والعربية.

منح وجوائز:

- جائزة التميز في البحث العلمي والابتكار من جامعة الملك سعود بالرياض في عام ٢٠٠٨م.
- الميدالية الفضية والميدالية البرونزية وشهادتا إنجاز من المعرض الدولي الثاني والثلاثين للمخترعين في جنيف بسويسرا عام ٢٠٠٤م.
- الميدالية الذهبية للبروفيسور كيه جاناردهانام في المؤتمر السنوي التاسع والعشرين للجمعية الهندية للطب الطبيعي والتأهيل المنعقد في تشيناي، بالهند، عام ٢٠٠١م.
- الميدالية الذهبية لأفضل ورقة بحثية لعام ١٩٩٦م، قدمت في المؤتمر الرابع والعشرين للجمعية الهندية للطب الطبيعي والتأهيل، بحيدر أباد، بعنوان «التنبيه الكهربي الوظيفي لاستعادة القدرة على المشي لمرضى إصابات الحبل الشوكي.

- جائزة الريادة من كلية طب الأطفال بجامعة تمبل بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٨م عن الأعمال المعنية بالأطفال ذوي التحديات الجسدية والعقلية.

- تكريم من قبل مؤسسة الملك عبدالعزيز ورجاله لرعاية الموهوبين (موهبة) بالتعاون مع مكتب التربية لدول الخليج العربي في عام ٢٠٠٠م، خلال الملتقى الأول لمؤسسة رعاية الموهوبين بمجلس تعاون دول الخليج العربي.

- تكريم من جلالة السلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان للتنمية والتأهيل في عام ٢٠١١م.

- الدكتوراه الفخرية من جامعة الجزيرة بالسودان؛ لتنظيم ورئاسة المؤتمر العالمي للإعاقة والتأهيل في عام ٢٠٠١م.

- ذلك كله توج والحمد لله، بوسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى للابتكار والاختراع والإبداع تشرفت به من يد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود طيب الله ثراه في عام ٢٠٠٧م.

وختاماً لما سبقت الإشـارة إليه من منجزات، والتي أراها مصدر فخر واعتزاز، لا يقل فخري واعتزازي عما أنجزته -بتوفيق من الله- في تربية أبنائي وبناتي وتأهيلهم، ليصبحوا عناصر فعّالة ومساهمة بقوة في خدمة وبناء مجتمعهم وبلدهم، في مجالات حيوية مثل علوم الحاسب وتقنية المعلومات والذكاء الاصطناعي (د. **إسراء** و أ. **نجلاء**)، وإدارة تجربة المريض (أ. **إيمان**)، وإدارة الأعمال الدولية (أ. **أحمد**)، وإدارة الأعمال (أ. **دانية**)، ونظم المعلومات الصحية (أ. **حمود**)، وإدارة سلاسل الإمداد (أ. **عبدالعزيز**)، والطب البشري (د. **مزنة**)، وطب الأسنان (د. **ميرنا**)، وعلم النفس الإكلينكي (أ. **مايا**)، والقانون (بإذن الله - **عبدالله**)، وهندسة الطيران (بإذن الله - **عمر**)، والعلوم الطبية (بإذن الله - **ألما**)، وبعضهم من حملة الماجستير والدكتوراه. مثلما رأيت نفسي امتداداً لأبي في خدمة هذا المجتمع، أرى أولادي امتدادا لي ولجدهم، ووصيتي لهم أن نبقى ﴿**شَجَرة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ إبراهيم:٢٤.

SIXTY YEARS AMONG THE TIRED

My Journey from Pain to Relieving Others' Pains

سيرة و مسيرة

AUTOBIOGRAPHY

ستون عامًا بين المتعبين

رحلتي من الألم إلى علاج آلام الآخرين

ستون عامًا ونيف، أمضيتها بين المتعَبين، متعبًا منهم، ثم يدًا تمتد إلى أياديهم لتأخذ بها من براثن التعب. علمتني الرحلة الطويلة، أنه لا شيء يخفف آلامك مثل التخفيف من آلام الآخرين، ولا شيء يساعدك على تجاوز متاعبك مثل مساعدة المتعبين، ولا شيء يزيح همومك مثل السعي في كشف الهموم عن المهمومين، أن الوصول إلى الإنسان، سبيلك الوحيد للوصول إلى إنسانيتك، وأن إنسانيتك تبقى مغنمك الأبقى، وليذهب الآخرون بما شاؤوا من مغانم الحياة، فالإنسانية خير مما يجمعون. حين جلست بين يدي مكاسب رحلتي وخسائرها، وتأملتها جيدًا، وجدت أن أكبر مكاسبي فيها ما عددته يومًا ضمن قائمة خسائري، ولقد علمني هذا ألا أرى الأشياء كما تبدو في ظاهرها، وأن أنتظر حتى تدور الحياة دورتها، وتهديني جائزة حكمتها، وتعلمني درسها الكبير، فأبتسم لعجائب الحياة، وأسجد حمدًا لله.

المؤلف

العالِم Scientist
للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع
for Press, Printing, Publishing & Distribution
رُخصت بموجب الأمر السامي الكريم رقم (٢٧٦٨)
وترخيص وزارة الإعلام رقم ٩٥٨٥ / أ / ب